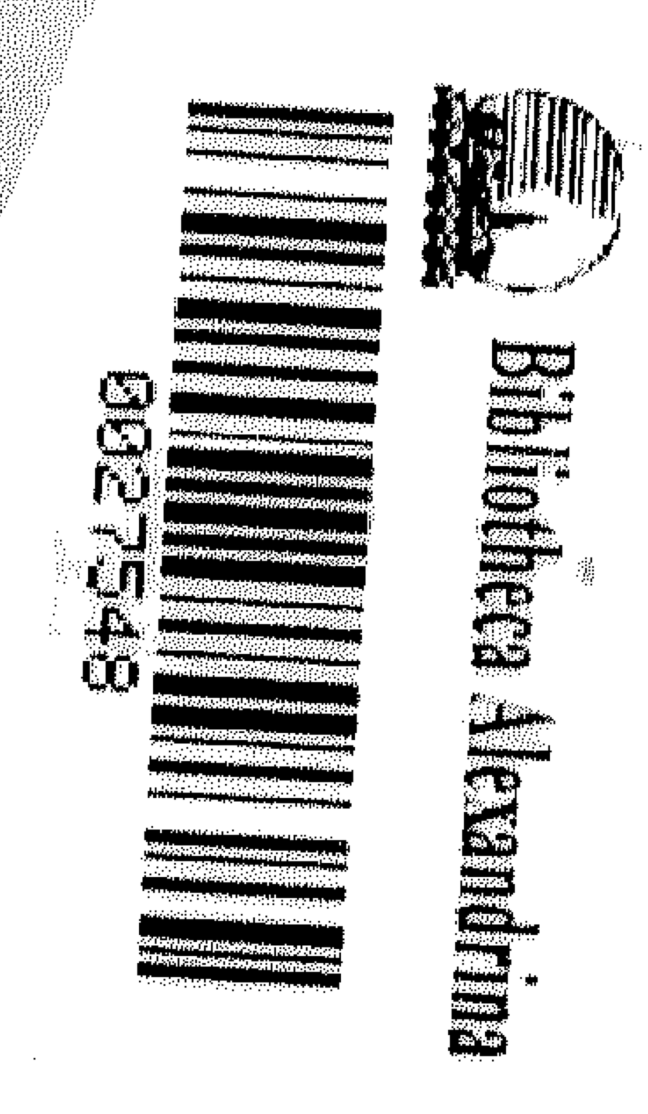
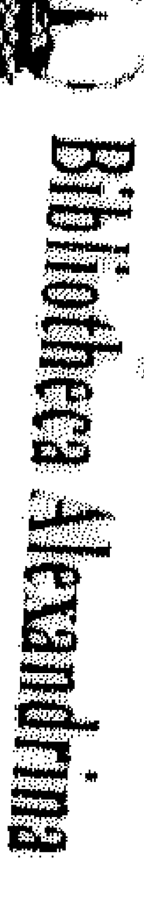
العالم الإسلامي المعاصر

الدكتور جمال حمدان





الناشر


٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

العالم الإسلامى المعاصر

العالم الإسلامي المعاصر

الدكتور جمال حمدان

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الناشر



العالم الإسلامى المعاصر
تأليف : د. جمال حمدان
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م
عالم الكتب - ٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة
ص.ب . : ٦٦ محمد فريد - ت: ٣٩٢٦٤٠١

فهرس

مقدمة

هذه دراسة فى جغرافية الإسلام ، تعالج فصولها القليلة مجموعة منتخبة ومترابطة من جوانبه الحيوية ومشاكله المعاصرة المؤثرة ، أكثر مما تحاول مسحا جامعا أو مانعاً للعالم الإسلامى سواء فى ماضيه أو حاضره . وللدين مكانه المقرر فى الدراسات الجغرافية ، كما أن للجغرافيا اهتماما تقليديا بالأديان . ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى العمل الموسوعى الكبير لبيير ديفونتين «الجغرافيات والدين Geographie et Religion» ، فضلا عن كتابات فلير وبومان وهنجتنجتون وغيرهم من كبار الجغرافيين . والواقع أن الأديان تشكل غلافا شفافا غير مادى - الغلاف الروحى كما يسمى Noosphere - يمكن أن يضاف إلى طبقات الغطاءات المادية المتعددة التى تغلف سطح الكرة الأرضية .

وليس المقصود بجغرافية الإسلام دراسة الجغرافيا الإقليمية للعالم الإسلامى ، فمثلها - هذا بديهى حتى - هو مجرد دراسة «إقليم خاص» لا أكثر ولا أقل ، إلا أنه لغرض خاص مفهوم ومن زاوية اهتمام خاصة مطلوبة المقصود - بالتعريف - هو دراسة الإسلام فى ذاته من حيث هو ظاهرة فى المكان له توزيعه وامتداده الجغرافى الخاص فى اللاندكسيب وعلاقاته الإيكولوجية معه ، ومن حيث هو عامل مؤثر فى إقليمه وفى تشكيل تاريخه وحياة سكانه وتكوين أو تلوين وجه النشاط البشرى أو العلاقات الاجتماعية فيه ، بما فى ذلك على الأخص الجوانب السياسية الداخلية وترجيه السياسة الخارجية والمشاكل الدولية ... إلخ .

ومن هذا المنظور ، فإن جغرافية الإسلام يمكن أن تقع ، جنبا إلى جنب مع أصلها

الكبير جغرافية الدين بعامة ، داخل فرع أو أكثر من فروع الجغرافيا بالشرية ، ولكنها لن تخرج فى التحليل النهائى عن هذا الجذر الأب . فلقد يعدها البعض فصلا من الجغرافيا الاجتماعية التى تتناول المجتمع فى بيئته الطبيعية ، بينما قد يراها آخرون أدخل فى الجغرافيا الحضارية التى تهتم أكثر بنواحى الحضارة المادية واللامادية فى إطارها المكانى . على أن الجوانب السياسية بكل ثقلها وخطرها - أقليات خارج أو داخل الوطن ، مشكلات طائفية محلية أو قومية ، علاقات دولية أو ارتباطات عالمية... إلخ - هذه جميعا واضح مكانها التصنيفى على الفور فى الجغرافيا السياسية . كذلك فإن أبعاد الماضى من الموضوع ، اجتماعية كانت أو حضارية أو اقتصادية أو سياسية ، هى بسهولة جزء من الجغرافيا التاريخية . وعلى أية حال ، فإن من الخير والمفيد لجغرافى الإسلام أن يذكر دائما أنه يعمل فى النهاية داخل دائرة الجغرافيا البشرية ، بحدودها العريضة ووحدتها المترابطة .

والفصل الأول من البحث الحالى يجيب - ولا أكثر - على السؤال الأول فى الجغرافيا وهو : أين ؟ إنه رحلة تقصى حقائق ، ينظر إلى الخريطة الخام فحسب ، وحصيلته هى التوزيع الجغرافى للإسلام . ربما تحصيل حاصل كما قد نقول ، ولكنه وحده يمدنا بالمادة الأولية الضرورية لكل بناء يتلو . وإذا كان هذا الفصل الأول مجرد نظرة ، فإن الفصل الثانى نظرية مجردة . فهنا محاولة لصب الخامة التوزيعية النفل فى قالب أو نمط مورفولوجى ذى شكل معطى ومنطق حاكم . والنظرية التى تتدم - جديدة فيما نأمل - هى نظرية الإقليم العقدى أو المناطق الخلقية لها نواح وأطراف بينهما انحدارات ، وبها تختزل كل هيكل العالم الإسلامى وتركيبه الداخلى فى معادلة إقليمية مركزة ، أو خطة مكتفة كالبذرة أو مضغوطة كالكبسولة .

وكما يترابط الفصلان السابقان ، يؤلف الفصلان الثالث والرابع وجهين لشىء واحد ، ويمثلان معا دراسة فى الجغرافيا السياسية . ففى البدء نطالع خريطة الإسلام السياسية كما هى ، فنصنف دول العالم الإسلامى بحسب كثافاتها السياسية المختلفة ،

دولا إسلامية أو نصف إسلامية أو دول أقليات إسلامية ، مع تحليل المشاكل السياسية المترتبة وتشخيص أعراضها . ومن واقع هذا العرض التقريرى ، يحاول الفصل الأخير أن يحدد الدور السياسى للإسلام ، كما كان بالفعل فى الماضى ، وكما يتبغى علميا أن يكون فى المستقبل : آفاقه وحدوده ، طبيعتة وإمكانياته ، كل أولئك بيعدا عما يحاول البعض أن يلحقه به من تحريف أو استغلال .

وفى دراسة كهذه ، تعتمد فى الأساس على الحقائق العلمية الدقيقة ، نصطدم من أسف بعدم كفاية الأرقام اليقينية الوثيقية أو الحديثة . فالأرقام المتاحة كثيرا ما تختلف ، أحيانا إلى حد التضارب ، كما قد لايتيسر لنا منها إلا أرقام تقادمت بعض الشىء . وقد كان علينا أن نعتمد على ما أتيح لنا ، ربما على علاته . ومن الناحية الأخرى ، فبديهى أن الدراسة بعيدة كل البعد عن الدين كدين وعقيدة ، ولا شأن لها بطبيعة الحال بالمواقف الخاصة أو الشخصية زو العاطفية أو التعصبية ، إن سجلت المشاكل التى قد تعكسها أو تثيرها مثل تلك المواقف . هناك تشريح ، نعم ، ولكنه علمى موضوعى محايد ، دون تحيز أو تجريح . ولسوف تؤدى هذه الدراسة بعض غرضها إذا جاءت حافزا إلى مزيد من الأبحاث فى هذا المجال الخصب ، فنحن اليوم فى حاجة حقيقية إلى الكثير منها .

* * *

الفصل الأول

من جغرافية الإسلام

ليس ثمة بين أيدينا - فيما نعلم - دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام فى العالم . وحقا تحفل كتب المستشرقين والدراسات الإسلامية (الإسلامولوجيا كما يسمونها) بأكثر من مسح تخطيطى أو ثبت إحصائى للمسلمين فى هذه القارة أو تلك ، أو لانتشار الإسلام التاريخى هنا وهناك ، ولكنها فى الأعم الأغلب لاتعدو أن تكون خطوطا عريضة أو إلماعات سريعة متناثرة ، وكثيرا ما تعتمد على أرقام قديمة أو غير وثيقة ، وأحيانا - وهو أمرجد مفهوم - قد لاتتحرى النزاهة العلمية المطلقة .

ولهذا فنحن مازلنا بحاجة إلى دراسة متكاملة ترسم جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحى واسع الانتشار ، بالغ الخطورة فى الحياة اليومية المعاصرة ، المادية والثقافية ، والاقتصادية والسياسية ، لقطاع كبير من البشرية .

وما نزعم أن هذا البحث الذى نقدم الآن يمكن أن يسد هذه الثغرة تماما ، ولكنا نحسب أنه يقدم أرضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق والتمحيص . إنه مدخل ، مدخل لن نعرض فيه لأكثر من واقع التوزيع الجغرافى الراهن للإسلام ، فى جولة استقراء أشبه بشيء بالرحلة العلمية travelogue ، لاتستدعى بالضرورة أن نعود إلى القصة التاريخية لانتشار العقيدة إلا بمقدار ما تلقى من ضوء على الصورة الراهنة، كما لاتتعرض بأى قدر من تحليل للجوانب السياسية أو الاجتماعية المنبثقة من الوجود الإسلامى أو فيه ، فضلا عن أن تحاول اقتحام «نظرية عاملة» شاملة تجمع شتات الصورة فى نظام مورفولوجى واحد أو تخضعه لفلسفة إيكولوجية أحادية . فإن بدا هدف هذا البحث لأول وهلة مجالا ضيقاً إن لم يكن متواضعاً ، فإن الرحلة نفسها ، إذ نلهث معها عبر القارات والمحيطات والعوالم الشتى ، جديرة بأن تقنعنا أن بعض الاستقراء الأولى للمادة الخام قد يكون أشق منالا من بعض التنظير العلمى والتقنين أو التفلسف المنهجى الذى ، على أية حال ، سوف نعود إليه فى دراسة منفصلة بعد قليل .

أبعاد العالم الإسلامى

ليس سهلا أن نحصر عدد المسلمين فى العالم بدقة ، فما كانت الإحصاءات دائماً ميسورة ولا كانت التقديرات بعددها شيئاً يقينياً . ومن ثم تتفاوت التقديرات تفاوتاً كبيراً وكلنها لا تقل الآن بحال عن ٥٠٠ - ٦٠٠ مليون ، وربما رفعها البعض إلى ٧٠٠ مليون ، ومن الكتابات الدارجة ما يقفز بالمجموع على غير أساس إحصائى إلى ثلاثة أرباع البليون . ومن الإنصاف ، بل الواجب العلمى هنا أن نقرر أنه بقدر ما تجنح التقديرات الغربية إلى التهوين والتقليل من حجم الإسلام ، بقدر ما تندفع بعض الكتابات الغربية إلى التهويل والتضخيم . وكل من الاتجاهين ليس من العلم ولا من الدين فى شىء . ويبقى أن الإسلام يمثل بالتقريب ١٥٪ من سكان هذا الكوكب الذين يبلغون اليوم نحواً من ٣٥٠٠ - ٣٦٠٠ مليون نسمة ، أو قل إن واحداً من كل ستة أو سبعة أشخاص فى العالم يدين بالإسلام .

والإسلام بعد هذا فى توسع ديناميكى مطرد بعيد المدى ، بل لعله اليوم أكثر الأديان نمواً عددياً . فهو من ناحية يكسب كل يوم أرضاً جديدة وقوى مضافة على امتداد جبهة عريضة فى إفريقيا ، وربما فى آسيا المدارية بالإضافة إلى العالم الجديد شماله والجنوب . ومن ناحية أخرى يتفق أن أغلب مناطق العالم الإسلامى يعد من أقاليم النمو السكانى السريع حيث لم تزل معدلات المواليد مرتفعة فى الوقت الذى انخفضت فيه معدلات الوفيات انخفاضاً كبيراً . أى أن الإسلام يكسب ، ويكسب بمعدل الربح المركب ، ومن المرجح أن قوته النسبية فى ديموغرافية العالم ستتعدد باستمرار ، وقد لاتحل دورة القرن إلا وقد أصبح خمس البشرية من المسلمين .

ويجوز لنا هنا أن نشير - عابرين - إلى أثر الاستعمار على توسع الإسلام . فما أكثر ما يتردد فى كتابات الاستعمار عن « فضله » فى زحف الإسلام فى القرن الأخير ، خاصة فى إفريقيا ، بما قدم من تسهيلات حديثة ومواصلات لانتقاله ،

وبتبنيه له « كوسيلة ما للتحضير » ، وبعدم معارضته له كقوة سياسية وكأداة تشريعية .وهذه النغمة تملأ المصادر الفرنسية والإنجليزية على حد سواء ، كما لا تخلو منها الكتابات الهولندية عن إندونيسيا ، وإن كانت أحد نبرة فى الأولى بوجه خاص .

ولكن الحقيقة الموضوعية أن دخول الاستعمار جاء سداً أمام انتشار الإسلام ، أثقل خطوته وإن لم يستطع حقاً أن يشل حركته . ولولاه لكانت خريطة الإسلام اليوم على الأرجح شيئاً يختلف كثيراً عما هى عليه الآن . وعلى سبيل المثال ، فإن التبشير الاستعمارى ، لاسيما فى إفريقيا ، إنما تم على حساب الرصيد أو الاحتياطى الكامن بالقوة للإسلام . وفى الهند - مثلا آخر - حيث عمق الاستعمار عن عمد الصراع الدينى بين المسلمين والهندوس ، أدى التعصب الجديد إلى وقف أو إبطاء زحف الإسلام الذى كان منطلقاً فى شبه القارة .

وإذا نحن أردنا أن نضع الإسلام فى مقياس الأديان العالمية الكبرى ، لوجدناه يأتى فى المرتبة الثالثة بعد البوذية فالمسيحية ، بينما بعده تأتى الهندوكية . وتكاد قوة الإسلام أن تتعادل عددياً مع قوة الكاثوليكية كبرى طوائف المسيحية . غير أن لنا ، إذا اعتبرنا أن الأديان السماوية هى الأديان بمعنى الكلمة ، أن نقول إن العالم المعاصر يستقطب فى واقع أمره فى قطبين لا ثالث لهما : المسيحية والإسلام ؛ فهاتان - توحيديا - هما الديانتان الفعالتان اللتان تتقاسمان ، ربما تتنازعان ، العالم اليوم . أما اليهودية فبحجمها (١٥-١٦ مليونا) وبإحجامها عن التبشير قوقعة حفرية بلا تحفظ أو تحيز .

ولئن بدا الإسلام اليوم - موضوعيا - أقل عددا وأضعف ناصرا من المسيحية ، فما هو إلا نمط وتوازن حديث العهد نسبيا ولم يتحقق إلا من الكشوف الجغرافية وتوسع أوربا المسيحية فى العالم الجديد والقديم ، ثم أكدته بصفة حاسمة الثورة الديموغرافية العارمة التى عرفتها أوربا الصناعية منذ القرن التاسع عشر . أما قبل

ذلك فمن المرجح أن العكس كان صحيحا ، بينما من المؤكد أن رقع الإسلام كانت أشد تراميا واتساعا من رقعة المسيحية . فكمؤشر وعلى سبيل المثال ، حين كانت أوربا تعد ١٠٠ مليون نسمة في سنة ١٩٥٠ ، كان لإفريقيا نفس العدد ، في حين بلغت آسيا ٢٥٠ مليون نسمة . وعدا هذا فهناك الدليل التاريخي غير المباشر ، حين كان الشرق الإسلامي مركز الثقل الحضاري والسياسي في العالم الوسيط .

أما من حيث الرقعة ومدى الانتشار ، فالإسلام دين عالمي أو كوكبي بلا مراء ، رغم مايدعيه البعض من أنه دين جزئي أو إقليمي أحيانا ، أو من أنه دين «إفريقاسي» أحيانا أخرى . إذ يوشك ألا تكون هناك دولة في عالم اليوم لايتمثل الإسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الآلاف كما في استراليا أو غرب أوربا مثلا . فإن عد هذا وجودا رمزيا ، فإن جسم الإسلام الحقيقي – بيت الإسلام – يظل يشغل حيزا جغرافيا هائلا بأي مقياس .

فالإطار الخارجي الأقصى للاسلام يصل شمالا حتى أعالي الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض ٦٠ شمالا ، ويترامى جنوبا حتى نهاية إفريقيا عند الرأس على خط عرض ٣٥ جنوبا . أما شرقا بغرب فنحن نلهث مع الإسلام من خط طول ١٢٠ شرقا حيث الفلبين إلى حوالي ٣ غربا عند الرأس الأخضر . فهذه شقة تبلغ ٩٥ درجة بالطول ونحو ١٤٠ درجة بالعرض ، أي حوالي ربع وثلث محيط الأرض على الترتيب ، أو ما يعادل نصف دورة من دورة الليل والنهار ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي .

وبهذا أيضا فإن محيط الإسلام يتحدد أساسا بنصف الكرة الشمالي أولا ، وبنصف الكرة القديم ثانيا . فالإسلام جنوب خط الاستواء أطراف وأصابع ثانوية ، وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة . وهذا – بالمناسبة – هو النمط الهيكلي العريض لتوزيع السكان العام على الكرة الأرضية . ذلك الربع من الكرة الأرضية هو إذن «الربع الإسلامي» كما قد نقول .

ويمكننا أن نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة أخرى فنقول إن الإسلام يمتد فى قوس محدد من بكين إلى كازان إلى بلغراد فى الشمال ، أو فى قاطع من فرغانة إلى غانة كما كان يقول مؤرخو الإسلام ، أو فى قاطع آخر من جبل طارق الأطلسى إلى سنغافورة جبل طارق الهادى ، أو من مالاجا بالأندلس إلى ملقا بالملايو (وكل من الاسمين مشتق من تسمية الإسبان للمسلمين) . كذلك يمكن أن نحدد قاعدة العالم الإسلامى فى الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال حتى قبائل التاجال (بالفلبين) ، أو من غينيا إلى غينيا الجديدة . أما بالطول ، فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزى والكيمبوبو . وبعامة ، فتلك أبعاد لاتقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم ، ولايفوقها من بين الأديان جميعا إلا أبعاد المسيحية .

الإسلام بين القارات الثلاث

ويحسن هنا أن نتعرف على توزيع الإسلام بين القارات الثلاث . فأوربا ، بما فيها الاتحاد السوفيتى الأوربى ، لاتضم من المسلمين إلا نحو ١٥-٢٠ مليونا يتركز ٤-٥ ملايين منها فى البلقان خاصة غربه وبالأخص فى يوجوسلافيا ، والباقى فى سوفيتات جنوب الاتحاد فى القوقاز وشمال البحر الأسود . تلك إذن مجرد بقايا محدودة الوزن ، وجبهة متراجعة تاريخيا وحاليا إذا ما قورنت بإسلام أوروبا الوسيطة المتأخرة ، بل بأوربا القرن التاسع عشر .

فطوال العصور الوسطى كان الإسلام يغطى جزر البحر المتوسط لاسيما صقلية والبليار ، فضلا عن الجزء الأكبر من إسبانيا وخاصة الأندلس . وقد انحسرت هذه الجبهة مع طرد المور . غير أن المد العثمانى جاء كبديل وتعويض فى أقصى الشرق ، فكان الإسلام فى العصور الحديثة أعظم ثقلا وأوسع انتشارا فى كل جنوب شرق القارة حتى الدانوب والمجر إلى سهول جنوب أوكرنيا . ثم بدأ التقلص والانكماش إلى أن

اشتد مع القرن الماضى ، ثم استكمل بتبادلات السكان والأقليات فى العشرينات الماضية ، فقد كانت هذه التبادلات السكانية الضخمة فى حقيقتها تبادلات دينية بين الإسلام والمسيحية .

وحتى فى أيامنا هذه سجل الإسلام انكماشه أخرى حين نقل الاتحاد السوفيتى بالجملة كثيرا من الأقليات الإسلامية فى القرم والفولجا إلى سوفيتاته الأسيوية أثناء الحرب الماضية وتقدم الألمان ، وإن كان قد سمح لبعضها بالعودة فى الستينات كذلك فقد أخرج كثير من المسلمين من بلغاريا واتجهوا إلى تركيا من عام ١٩٥٠ .

والمحصلة النهائية هى أن الإسلام الآن ليس إلا ظلا باهتا لما كان عليه يوم ما فى أوربا المتوسطية والجنوبية الشرقية . بيد أننا ينبغى أن نضيف أن هذا التراجع والانكماش هو عملية زحزحة وخروج وليس ردة دينية بطبيعة الحال ، فيكاد الإسلام أن ينفرد بين الأديان جميعا بأنه لم يعرف أى ارتداد عقائدى بمعنى التحول عنه إلى غيره وإن عرف الانحسار والتراجع الجغرافى فى أكثر من مرحلة وفى أكثر من جبهة . هذا ، وإذا كان الإسلام قد سجل «كسبا» جديدا فى أوربا ، ممثلا فى الهجرة من المغرب العربى ، خاصة من الجزائر ، إلى فرنسا حيث يقيم نحو نصف المليون إلى المليون منهم، فإن هذا وضع خاص جدا ومؤقت ولايمكن أن يعد توطنا حقيقيا دائما .

وإذا كان الإسلام قد تراجع أو تضاءل فى أوربا ، فهو على العكس من ذلك فى أفريقيا : جبهة مدية زاحفة بقوة وإيقاع لايعرفها فى أى قارة أخرى كما لايعرفها أى دين آخر سواه فى الوقت الحالى فى أى مكان . فلقد قدر عدد المسلمين فى عام ١٩٣١ بنحو ٤٠ مليونا ، بينما قدر فى عام ١٩٥١ بنحو ٨٥-٩٠ مليونا ، وهو الآن بلا شك يتعدى علامة المائة بكثير ، ربما مائة ازدادوا عشرا أو خمسة عشر . وهذا من مجموع قدره نحو ٣٥٣ مليونا حاليا يعنى زهاء ثلث القارة : وهى طفرة لايمكن أن تفسرها الزيادة الطبيعية وحدها .

وهكذا إذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط «كبحيرة إسلامية» ، فإنه قد كسب إفريقيا كقارة إسلامية . غير أن زحف الإسلام فى إفريقيا المعاصرة يختلف عنه فى اسيا الوسيطة ، ففى الماضى كان اكتساحه سريعة أخاذة وخاطفة كالطوفان ، وهو الآن أقرب إلى الانتشار الغشائى (الأسموزي) الهادىء ، وئيد ولكنه أكيد .

والإسلام بهذا وبعد هذا لايزيد فى إفريقيا عن قوته العددية فى أى من الباكستان أو إندونيسيا بكثير أو بالتقريب ، وبالتالى لايكاد يبلغ خمس قوة الإسلام فى العالم . ولكنه مع ذلك كفيل بأن يجعل منها «قارة الإسلام» بالضرورة لأن الإسلام لا يصل إلى نسبة الثلث فى أى قارة سواها . أبعد من هذا تعد إفريقيا ، أكثر من أى قارة أخرى ، جبهة ريادة وزحف الإسلام واحتياطى توسعه فى المستقبل . فكل شىء بإجماع - وقلق ! - كل الكُتَّاب والمبشرين الغربيين قبل سواهم يشير إلى أن دين المستقبل فى قارة المستقبل إنما هو الإسلام .

آسيا ، بسهولة ، هى مركز ثقل الإسلام وبيته الحقيق مثلما كانت موطنه الأصلى ، وحدها تضم أربعة أخماس مسلمى العالم أو نحو ٤٥٠ مليون نسمة - آخرون يقولون ٥٥٠ مليوناً . هى إذن للإسلام كأوربا للمسيحية : قلع وكعبة وقلب . غير أن وزن الإسلام النسبى فى آسيا أضعف منه بكثير فى إفريقيا ، حيث لا يزيد عن ٢٠٪ من مجموع سكان القارة البالغ نحو ٢٠٠٠ مليون (١٩٧١) . أى أن المطلق هنا والنسبى فى تعارض ما بين القارتين . هذا ، بين قوسين ، يكاد يكون عكس الوضع بين أوزان وأثقال قطاعى العالم العربى فى آسيا وفى إفريقيا .

كذلك فإن الإسلام فى شماله الأسيوى قد أصابه بعض ما أصاب الإسلام الأوربى من تقلص وتدهور لا يرجحه - فيما يبدو - ما يكسبه فى جنوبه الموسمى ، ومن ثم فهو إلى الاستقرار والثبات النسبى أقرب ، وذلك على مستوى القارة ككل . والمقدر أن الإسلام فى جنوب القارة لا ينمو الآن إلا بالزيادة الطبيعية للسكان وحدها وبمقدارها .

ولعله قد تبدت للقارىء الآن ، من ديناميكيات الإسلام فى القارات الثلاث ، حركة محددة حديثة أو معاصرة ، لا يمكن أن تخطئها العين . إن جسم الإسلام ككل يزحف تحت ناظرينا فى حركة كتلية من الشمال إلى الجنوب ، فيستبدل على أطرافه الجنوبية عروضاً سفلى بعروض عليا على أطرافه الشمالية . وهو بهذا يزداد دفئاً أو حرارة إذ يزداد ابتعاداً عن القطب واقتراباً من خط الاستواء ؛ إنه باختصار وبالمجاز «يهاجر» من أوربا إلى إفريقيا .

ولقد أعطت هذه الحركة مادة لناقدى الإسلام ، كما أعطاها الاستعمار كثيراً من دلالة وتأويل . فهؤلاء الذين طالما قذفوا الإسلام بكل النعوت ، فسروا هذه « الزحزحة القارية » للإسلام على أنها انزلاق من مستوى حضارى أعلى إلى آخر أدنى ، بمثل ما هى تحول عن الجنس الأبيض المسيطر إلى الأجناس « الملونة » المستعمرة . ومن هنا وذاك خرجوا ما شاء لهم من دعاوى ، ليس أشدها نكراً أن الإسلام ليس دين الحضارة الراقية أو أنه « دين الملونين » أو دين مدارى وحسب ! ولسنا هنا فى معرض الدفاع ، ولكننا نذكر هذه الاتهامات والتأويلات للتسجيل الموضوعى فقط .

مورفولوجية العالم الإسلامى

الآن ، كيف يبدو النمط الجغرافى للإسلام أو كيف تتشكل مورفولوجيته العامة داخل إطاره الكبير فى العالم القديم ؟ ثمة يجبهنا فى شكل الإسلام ، إذا نظرنا إلى خريطة توزيعه الفعلى ، نمط قوسى أساسى يتوسط المثلث القارى ويتعامد عليه بصورة ما كمحور هيكلى أو كنطاق محدب ، يترامى بعمق متفاوت ولكنه عظيم ، ويواكب بصفة تقريبية نصف دائرة المحيط الهندى ويوازيها ويكاد يحف بها وهذا القوس العظيم الذى يبدأ بجناح أيسر عميق عريض فى إفريقيا من عروض مدارية سفلى ، لا يلبث أن ينثنى شمالا لينتظم غرب آسيا ووسطها فى عروض أعلى بكثير ،

ثم إذا به يعود فى جناحه الأيمن فينحنى نحو الجنوب مرة أخرى وذلك فى جنوب آسيا وجنوبها الشرقى حيث يضيق كثيراً ويدق أحياناً حتى ليتقطع ويتبعثر ، إلا أن ينتهى كما بدأ فى عروض مدارية أو استوائية .

هذا فى معنى حقيقى جداً هو « هلال الإسلام » ، وفى قلبه ، ونكاد نقول كنجمته ، يستقر المحيط الهندى ، الذى هو منطقياً وبالضرورة « محيط الإسلام » . وإذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط كبحيرة إسلامية أو شبه إسلامية تقليدية ، فقد كسب المحيط الهندى الذى أصبح « البحر المتوسط » الجديد فى العالم الإسلامى ، الحضارمة والعمانيون أغريقه وبنادقته وإن لم يكونوا رومانه .. وبعامة ، فمن هذا الشكل القوسى تنبثق حقيقة أساسية وهى أن دار الإسلام فى إفريقيا تتركز بالدرجة الأولى فى نصفها الشمالى ، بينما تقع من آسيا فى نصفها الجنوبى .

وقد يمكن أن نرى فى تركيب هذا الهلال قدراً ما من السمترية والتناظر ، فننظر إليه على أنه يتألف من قلب وجناحين : قلب قارى ضخم متصل يمتد بلا انقطاع من حدود الصحراء الكبرى حتى وسط آسيا ؛ وبعده يبدأ جناحان جزريان يتحول الإسلام فى كل منهما إلى أرخبيل أو مجموعة من الجزر صغرت أو كبرت ، فى الغابة فى إفريقيا جنوب الصحراء أوفى المحيط فى آسيا الموسمية . إلا أن الجناح الإفريقى لا يقاس البتة وزناً وثقلا بالجناح الأسيوى . ولهذا فقد يكون من الخير لنا أن نكتفى بأن نميز فى هلال الإسلام بعامة بين قطاعين جوهريين واضحين بما فيه الكفاية . قطاع غربى وآخر شرقى ، خط التقسيم بينهما يمر بالتبت والهند .

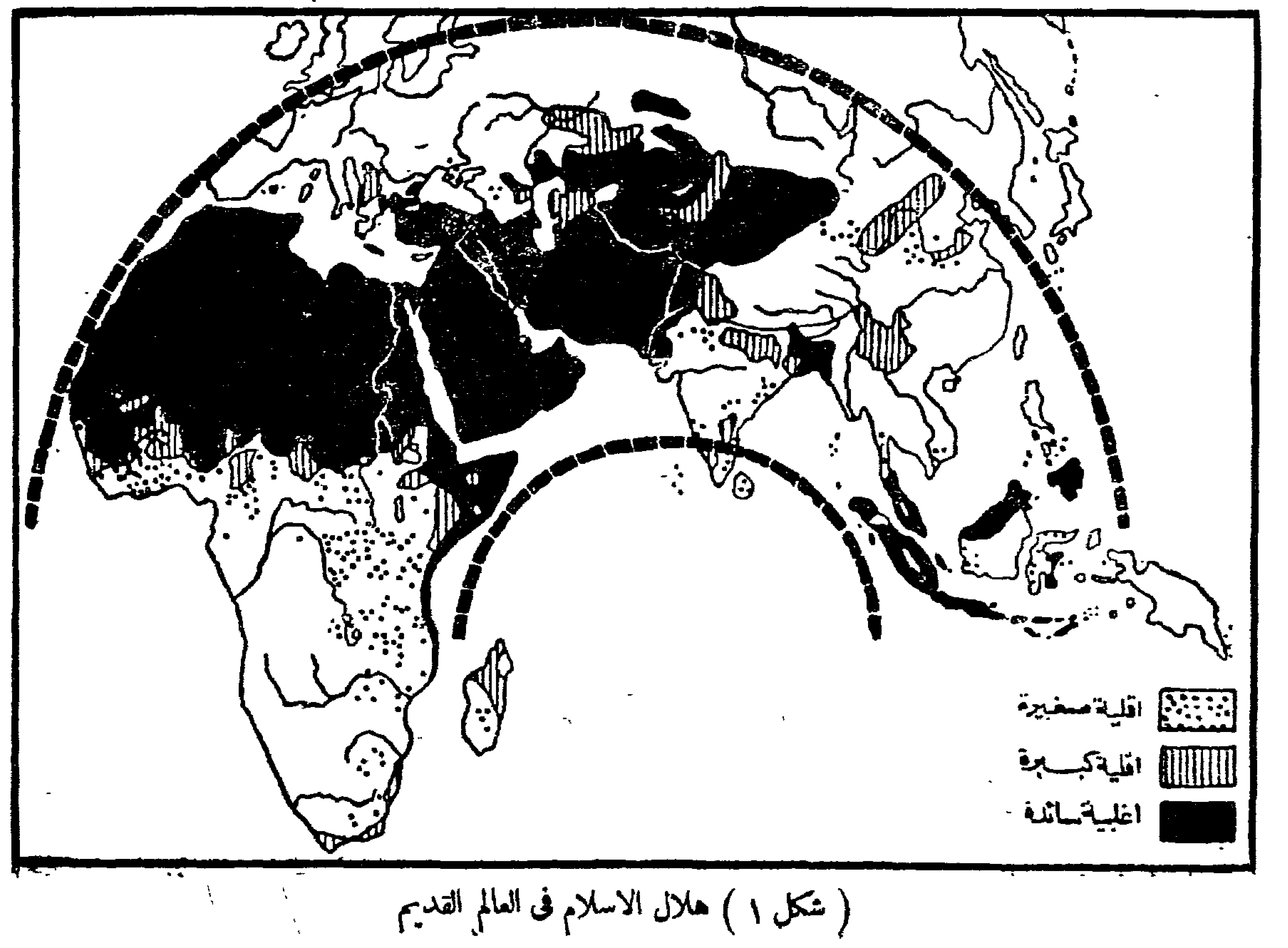
غير أننا قبل أن نتتبع كلا من هذين القطاعين بالدراسة ، ينبغى أن نستدرك حقيقة هامة فنقول : إن الإسلام كدين وإن بدا فى معظم رقعته نطاقاً متصلا فهو كسكان يتألف أساساً وبالدقة من أرخبيل - ليس أرخبيل العرب إلا جزءاً منه - من الجزر أو الواحات البشرية المركزة المتباعدة فى وسط بحر الرمال أو بحر الماء . ولا

تعارض فى ذلك بين الحقيقتين الدينية والديموغرافية . فالنمط السكانى كتل متبلورة يفصلها عن بعضها البعض مساحات شاسعة من الصحارى أو المرتفعات تكاد تكون من اللامعمور .

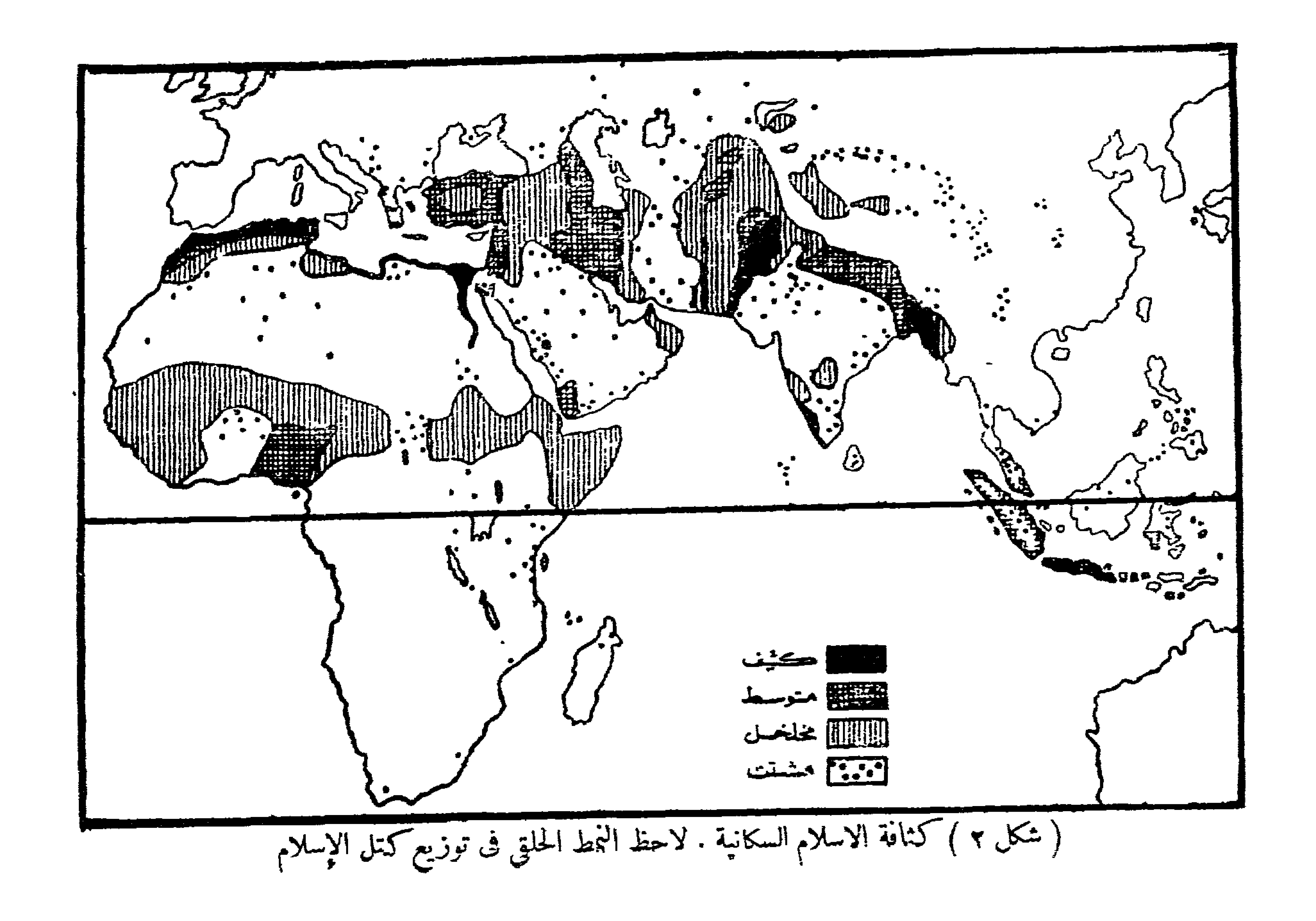
ثمة كتلة المغرب العربى مثلا ، ثم مصر ، وسودان السفانا على الجانب الآخر من الصحراء الكبرى ، وهناك كتلة الشام والعراق ، ونواة تركيا وإيران ، وكتلتا الباكستان الغربية والشرقية ، حتى تصل إلى الأرخبيل الإندونيسى ، هذا عدا كتلة الصين وكوكبة الاتحاد السوفيتى . ويمكن أن نضيف فى النهاية أن توزيع الإسلام بعامة يأخذ فى ذلك كله صورة ونمط توزيع السكان عامة فى محيطه إلى حد بعيد ، وهذا أمر منطقى حيث أنه إن لم يمثل الأغلبية السائدة فى كثير من • اطقه فهو على الأقل جزء لا يتجزأ من الغطاء البشرى فيها .

بل إن هناك حقيقة أساسية وأسية فى نمط توزيع الإسلام داخل محيطه الكبير تفرض نفسها على كل باحث . فهذا الأرخبيل المزدحم من الكتل السكانية المنفصلة لا ينتثر عشوائياً كسديم شتيت بلا خطة ، وإنما هو يتنضد فى سلسلة أو مجموعة متراصة من الحلقات – كحلقات الجزر المرجانية atoll – التى تتجاور وتتعاقب وقد تتماس بطول امتداده من الشرق إلى الغرب ، إن اختلفت فى أقطارها وكثافاتها وأوزانها .

ففى إفريقيا الشمالية يتكثف الإسلام الفعال فى حلقة متصلة بدرجة أو بأخرى تحفّ بأطراف الصحراء الكبرى ، بادئة بكتلة المغرب الكبير ثم كتلة وادى النيل ، وأخيراً يغلق الدائرة نطاق السكان الكثيف فى شريط السفانا . فالصحراء الكبرى أشبه فى هذا ببحر داخلى عظيم يتكدس المسلمون فى شطآنه وسواحله أكثر مما يخوضون فيه . والواقع أن المحاور الرئيسية لانتشار الإسلام التاريخى فى هذا النطاق إنما تبعت هذه الشواطئ الكثيفة العمران ، ولم يخترق بحر الصحراء إلا شعب فرعية ملأت فراغاته بغشاء ، وإن كان عالمياً ، خفيف جداً كأنه « تراب الإسلام » .



(شكل ١) هلال الاسلام فى العالم القديم



(شكل ٢) كثافة الاسلام السكانية . لاحظ النمط الحلقي فى توزيع كتل الإسلام

والمشرق العربى بدوره يمثل حلقة كلاسيكية هى « الحلقة السعيدة » : الهلال الخصيب فى الشمال تتممه فى جانب كتلة مصر ، ثم نطاق الكثافة الذى يحف بالجزيرة العربية على طول سواحلها ابتداء من الحجاز حتى اليمن والجنوب العربى ثم الخليج حيث تتصل الدائرة مع العراق . وداخل هذه الحلقة ليس ثمة إلا « قلب ميت » سكانياً، وإن يكن قلب الإسلام كله عقيدة . كذلك يمتاز توزيع السكان فى تركيا تقليدياً بتطرفه على الهوامش الساحلية خاصة الغربية والشمالية الغربية تاركاً قلب الأناضول شبه ميت . وبالمثل تفعل الكثافة فى هضبة إيران الطبيعية حيث يتركز السواد الأعظم من سكان إيران على هوامشها الشمالية والغربية وإلى حد ما الجنوبية ، بينما تتم الدائرة مشرقاً بكتلة السكان فى أفغانستان والباكستان الغربية ، تاركة قلباً ميتاً آخر فى وسط الهضبة بصحاريها الملحية .

وإذا اعتبرنا الإسلام فى شبه القارة الهندية ككل لتكرر النمط مرة أخرى : تبدأ الدائرة بكتلة المسلمين الصلبة فى الباكستان الغربية ، وتستمر على طول نهر الجانج حتى تستقر على خليج البنغال فى كتلة الباكستان الشرقية ، ثم تكتمل الدائرة على طول سواحل الدكن - دون قلبها - شرقاً وغرباً . وفى غرب الصين فى سينكيانج يرسم توزيع الإسلام نمطاً حلقياً بيضاوياً . وأخيراً يؤكد النمط نفسه - أو يشى بنفسه بالأحرى - فى عالم جزر وأشباه جزر جنوب شرق آسيا . فعلى طول قوس جزر الملايو وإندونيسيا الفستونية نجده ، حتى ينثنى شمالا عبر سيلاويزى إلى جنوب الفلبين . ويمكن أن نعد الإسلام على الأطراف الجنوبية لفيتنام وكمبوديا نهاية الدائرة . بل حتى البلقان يمكن أن نتعقب هذا النمط الملح . فالإسلام هنا يتركز على هوامشها الحوضية فى غرب يوجوسلافيا وألبانيا ثم شمال اليونان ثم تركية أوربا وأخيراً شرق بلغاريا .

القطاع الغربى من الإسلام

نستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا فى عالم الإسلام بالتفصيل . القطاع الغربى يشمل الإسلام فى إفريقيا وغرب آسيا - ومعها البلقان - وكل هضبة إيران ثم الباكستان الغربية ، ثم يستمر فى سهول طوران وتركستان حتى مشارف الفولجا والأورال شمالا وسينكيانج أو التركستان الصينية شرقاً . يتأرجح وزن هذه الكتلة الضخمة حوالى ٣٨٠ - ٤٠٠ مليون نسمة ، أى أنها تقترب من ثلاثة أخماس العالم الإسلامى جميعاً. فإذا أضفنا أنها تغطى - مساحة - الرقعة الكبرى والكبرى جداً من أرض الإسلام ، جاز لنا أن نعدها صلب ومركز ثقل الإسلام .

والقطاع ككل يبدو كقاطع ضخم بارز عبر العالم القديم ، حتى ليحسبه البعض كل هيكل العالم الإسلامى ، وهو ما ليس صحيحاً بالدقة لأنه يغفل القطاع الشرقى برمته . أو قد يرى البعض فى هذه الكتلة الماموث قارة داخل القارات ، «قارة وسطى» كما يسميها مونتى V. Monteil ، أو « جزيرة قارية » فى صميم يابس العالم القديم. وأهم حقيقة جغرافية فى هذا القطاع بلا ريب أنه بقعة زيت عظمى تمددت ، كتلة واحدة متصلة لا انقطاع فيها وإن دقت كثافتها وتخلخلت كلما بعدنا عن قلبها بصورة عامة حتى تتعرج على أطرافها والهوامش فى بروزات كالرءوس والخلجان ، تتقطع كالجزر والأسافين فى المحيط غير الإسلامى المجاور ، وذلك كما على حواف الغابة المدارية فى إفريقيا جنوباً وكما فى البلقان وعلى أطراف القوقاز واستبس وسط آسيا شمالا .

والذى يفسر هذا الاستمرار الأرضى الطاغى هو أولا وبلا تردد قرب الكتلة جميعها من الموطن الأصلى للإسلام ، فكانت قوة دفع العقيدة بكراً فتية ونبض الانطلاقة مرتفعاً غلاباً ، فجاء انتشار الدين فى كل الاتجاهات غطائياً عالمياً وكاسحاً ،

غير أن ثمة بعد هذا عاملا جغرافياً مساعداً ومواتياً ، إن لم يكن ضاغطاً ، هو طبيعة الكتلة القارية المتصلة لاسيما فى إفريقيا القارة - الكتلة بالضرورة .

العالم العربى

حوالى الوسط الجغرافى من هذا القطاع العربى من الإسلام يقوم العالم العربى كقلب العالم الإسلامى النابض ، باعتباره مهد العقيدة وموطن الأماكن المقدسة ، فالعالم العربى هو أولا النواة النووية فى الإسلام ، وهو بعد القطب المغناطيسى للمؤمنين . لكن العالم العربى بعد هذا أكثر من قلب : إنه أيضاً رأس ، ورأس مؤثر وموحٍ عند ذلك ، على الأقل فى القطاع الغربى من الإسلام . ذلك أنه يضم وحده أكثر من ١١٠ ملايين ، الغالبية الساحقة منهم من أبناء الدين ، يمثلون خمس وربما أكثر من خمس المسلمين جميعاً ، وأهم منها يمثلون قمة تطور وتبلور وأصالة العقيدة ونقاوتها مذهبياً . ولهذا كان أمراً مقدوراً دائماً ومن قديم أن يلعب العالم العربى فى العالم الإسلامى دوراً خاصاً لا على المستوى الدينى فحسب ، بل وعلى المستوى السياسى كذلك .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن الإسلام يختلف فى تاريخه وتوسعه عن بعض الأديان الكبرى الأخرى . فكثيرة هى الأديان التى نشأت فى موطن - مشتل ثم هاجرت منه وهجرته كلية أو تقريباً لتنتشر خارجه أساساً كالبوذية بالنسبة إلى الهند وكاليهودية والمسيحية بالنسبة إلى فلسطين . لكن الإسلام وحده يتفرد أو يمتاز بأنه ، رغم أن انتشاره الأكبر يقع اليوم خارج موطنه الأصلى فى العالم العربى ، فإن هذا الموطن لم يزل له معقلا أساسيا وظل دائماً حقلا كثيفاً من أخصب حقوله . غير أن الشق الأسيوى من العالم العربى إذا كان مهد الإسلام ومشتله الأول ، فإن الشق الإفريقى هو اليوم حقله الرئيسى مساحة وسكاناً ، إذ يحتكر نحو ثلثى العرب (٧٥ مليوناً)

حيث لا يضم الأول إلا الثلث ، وتستوعب مصر وحدها أقل قليلا من ثلث العرب المسلمين ، وتكاد تعادل بذلك أياً من آسيا العربية أو مجموع المغرب العربى الكبير ، وتأتى بذلك رابعة أو خامسة دول العالم فى عدد المسلمين .

بيد أن العالم العربى بعد هذا ينتظم نسبة مذكورة من الأقليات الدينية ، وهو أمر مفهوم تاريخياً وجغرافياً ، لأنه هو أيضاً مهد الديانات التوحيدية الأسبق . فرغم أن آخر وأحدث الغطاءات الدينية التى نشأت وانتشرت فى المنطقة هى التى سادت فى النهاية ، إلا أن بقايا الغطاءات الأسبق والأقدم ظلت متوطنة فى جيوب عدة هنا وهناك. على أن هذه الأقليات تختلف ما بين المشرق والمغرب . فصلبها فى الأخير هو اليهودية حيث كانت قوتها تبلغ تقليلدياً نحو نصف مليون ، مركزها الرئيسى فى المغرب الأقصى (مراكش) ، إلى أن بدأت أخيراً تتناقص بسرعة بالهجرة الخارجة .

أما فى المشرق فإنها هى المسيحية أساساً ، وتتركز فى نواة صلبة رئيسية فى مصر ونوية ثانوية فى الشام . ففى مصر مليونان من الأقباط مع امتدادهم فى السودان بين كتلتهم فى مصر وكتلتهم فى إثيوبيا . إلا أن هذا - نسبياً - لا يشكل إلا ٦٪ من مجموع سكان مصر . وعلى العكس من هذا الشام ؛ فهنا لا يزيد حجمها عن المليون تقريباً ، ولكنها بالنسبة أثقل وزناً من نواتها فى مصر . فتتفاوت محلياً ما بين نصف السكان فى لبنان ونحو ١٦٪ فى سوريا وأقل من ذلك فى فلسطين .

لكن هذه جميعاً هى الأقليات الدينية الوطنية ، إلى جانبها ينبغى أن نضيف الأقليات الطارئة الدخيلة التى جلبها الاستعمار : اللاتينى فى المغرب والصهيونى فى المشرق . وهى فى الحالين تتناقض ونوع الأقلية الوطنية . ففى المغرب حيث الأقلية الوطنية يهودية ، جلب الاستعمار اللاتينى - خاصة الفرنسى - نحو مليونين من المسيحيين تركز أكثر من نصفهم فى الجزائر وحدها . ومن حسن الحظ أن التحرير قد صفى السواد الأعظم منها جميعاً . أما فى المشرق حيث الأقلية الوطنية مسيحية

أساساً ، حشد الاستعمار الصهيونى قطيعاً خلاسياً مغتصباً من شذاذ اليهود يناهز هو الآخر المليونين ونصف المليون . وكنظيره فى المغرب ، لا يمكن إلا أن يعد انحرافة طارئة دخيلة ، ولا يمكن إلا أن يلقى نفس المصير ، وهو يوم قد يراه البعض بعيداً ونراه قريباً .

إفريقيا المدارية

من العالم العربى ننتقل إلى الإسلام فى إفريقيا المدارية لنلقى – بتقريب شديد – نحواً من ٥٥ – ٧٠ مليوناً من « المسلمين السود » أو « المسلمين البانتو » أو «الإسلام المدارى» كما يسميهم الكتاب الأوربيون .

ويتوزع هذا النطاق أساساً بين غرب إفريقيا فى الدرجة الأولى وشرقها فى المحل الثانى . ففى غرب إفريقيا يستوعب الإسلام صف دول الصحراء والسفانا فى الشمال (تشاد ، النيجر ، مالى ، موريتانيا ، السنغال ، زمبيا) وصف دول السفانا والغابة فى الجنوب ، فى الأولى كأغلبية مطلقة لا تقل عن ٩٠٪ بحال ، وفى الثانية كأقلية هامة باستثناء غينيا التى يسودها الإسلام . فى الأولى يتركز سكاناً فى الشريحة الجنوبية من دولة وإن كان عالمياً كدين فى رقعة الدولة ، وفى الثانية يتركز سكاناً وديناً فى القطاعات الشمالية ويقل بسرعة واطراد كلما اقتربنا من الساحل .

وتفسير النمط الجغرافى الأخير فى دول السفانا والغابة أن هنا التقى تيارا الإسلام من الشمال والمسيحية القادمة مع الاستعمار من الجنوب ، فتركز الأول خاصة فى الشمال السافانى وتوطن الثانى فى السواحل الجنوبية . ولكن السيادة العددية العامة لا تتحقق لأى منهما ، بل تظل للوثنية الاستحيائية . ففى الكمرون مثلا نصف مليون مسلم ، وفى الفولتا العليا يؤلف المسلمون من طوارق وفولا وديولا نحو ٦٠٠ ألف ، وفى غينيا « الصغرى » (البرتغالية) يجمع الماندنجو والفولا ١٧٢ ألفاً ،

وثمة فى ليبريا جماعات الماندتان الشديدة التمسك بالإسلام . وفى بقية وحدات السفانا والغابة ابتداء من سيراليونى حتى جمهورية إفريقيا الوسطى ، بل وحتى جنوب السوادن تسود الوثينة ولكن المسلمين كثيرون ، كما أن بالكنغو ، غير بعيد ، نحو ١٠٠ ألف مسلم (الأرقام الأخيرة أرقام أوائل الستينيات) .

ولكن نيجيريا لاشك أهم جزيرة إسلامية فى إفريقيا السوداء ، وتستدعى وحدها وقفة قصيرة . ففى عام ١٩٥٣ حين كان مجموع سكان نيجيريا الكلى ٣٠,٥ مليوناً كانت نسبة المسلمين تتراوح حول ٤٤ - ٤٦٪ ، أى تضم نحو الإسلام إلى ٧٠ أو ٨٠٪ ، ولا يتسرب منه إلى الجنوب إلا أطراف ثانوية تهوى معها نسبته إلى الثلث فى الغرب والصفر فى الشرق . وفى عام ١٩٦٣ أتى أول إحصاء بعد الاستقلال ، أتى نيجيريا بمجموع ٥٥,٥ مليون نسمة ، أجمع الكل داخل وخارج نيجيريا على افتعاله ومبالغته العامدة إلى درجة تسلبه كل قيمة . ويرجح البعض أن الرقم الصحيح ربما كان يدور حول الأربعين مليوناً . فإذا صح هذا ، فلعله كان فى نيجيريا يومئذ نحواً من ١٨ - ٢٠ مليون مسلم ، قد تصل اليوم إلى ٢٥ - ٢٧ أو ٣٠ مليوناً ، وهو ما يجعلها الدولة السادسة أو السابعة فى عدد المسلمين فى العالم والثانية فى إفريقيا .

وعدا هذا فمن الواضح فى نيجيريا أن الإسلام يرتبط بالسفانا أكثر منه بالغابة، ولكن أيضاً بالسهول أكثر منه بالمرتفعات التى تحولت إلى ملاجىء للعناصر الوثنية المستضعفة الهاربة من زحف المسلمين الفولا والحوصا (الهاوسا) ، ومثالها هضبة جوس (بتشى) فى الوسط حيث تتكدس قبائل كالتيف Tiv والنوبى Nupe . وبين هذه الجماعات وأمثالها يتقدم الإسلام اليوم بخطى حثيثة ، وأحياناً تفرض الشريعة الإسلامية نفسها قانوناً لا ديناً محل التقاليد القبلية الاستحيائية كما هو مشاهد بين النوبى .

أما إذا انتقلنا إلى الإسلام فى شرق إفريقيا ، فإن إثيوبيا هى النواة . ففيها يقدر المسلمون بنصف مجموع السكان الكلى الذى تتراوح تقديراته بين ١٨ ، ١٢ مليوناً . وهنا يتبلور معامل الارتباط بين الإسلام والكنتور (خط الارتفاع) : فيبدو الإسلام بوضوح دين السهول فى الشرق والجنوب (اسلامبحرى) حيث المركز هرر وحيث العنصر السائد هو الجلا والدنا كيل . هذا فى حين أن الهضبة فى الغرب هى القلعة المسيحية القبطية القديمة التى تمثل أكبر جزيرة مسيحية فى القارة الإفريقية سواء أصيلة أو دخيلة . وتتكرر العلاقة فى إرتريا حيث ينصف مجموع السكان (١,٥ مليون) بالتساوى بين الإسلام والأقباط ، وحيث يتركز المسلمون فى النصف الغربى السهلى والساحل السهلى بنسبة ٩٥٪ من مجموعهما فى حين يتركز الأقباط فى النصف الشرقى الهضبى بنسبة ٨٥٪ من مجموعه .

وننتقل إلى الصومال بأقسامه العديدة لنجد نسبة الإسلام ترتفع إلى أعلى ما تصله فى إفريقيا - ٩٩٪ - ولكنه لا يزيد فى جملته عن الثلاثة أو الأربعة ملايين عدداً . ونحو هذا نلقاه على طول الساحل ابتداء من كينيا حتى الرأس ، ولكن بشقل أساسى قطبه حوالى زنجبار ، وبعمق متفاوت يصل إلى خط البحيرات ابتداء من فيكتوريا إلى تنجانيقا ونياسا . والإسلام هنا قديم الجذور ، إلا أنه تلقى موجة جديدة فى القرن الماضى والحالى مع هجرة الهنود إلى الساحل الشرقى لإفريقيا الجنوبية . وهذه هى الهجرة التى تعلل وجود أكثر من ١٥٠ ألف مسلم فى جمهورية جنوب إفريقيا . والإسلام فى كل هذا النطاق يتبع أساساً نمطاً ساحلياً فى توزيعه ، ويقل كلما توغلنا فى الداخل وارتقينا المرتفعات ، كما أن تركزه فى المدن أوضح . وهذا - سيلاحظ - على النقيض من الصورة مصدراً وموقعاً فى غرب إفريقيا حيث النمط داخلى لا ساحلى . وكل هذا يذكر بأصله البحرى الذى جاء من جنوب الجزيرة العربية مباشرة ثم ارتبط دائماً بساحل البحر . ففى جنوب إفريقيا مثلا يتوزع المسلمون كالآتى : ٤٦ ألفاً فى الكاب ، ٣٥ ألفاً فى ناتال ، ٢٨ ألفاً فى الترنسفال ، فى حين يختفون من الأورنج الداخلية (أرقام أوائل الستينيات المتاحة) .

٣٠

من البلقان إلى الباكستان

يبقى الآن من القطاع الغربى للإسلام أن ندرس امتداده فى غرب ووسط آسيا خارج العالم العربى ، وقد يجوز أن نضمنه أطرافه البلقانية كنقطة ابتداء . وتنقسم هذه الرقعة بوضوح إلى نطاقين ، هضبى فى الجنوب وسهلى فى الشمال . فأما الأول فسلسلة متصلة من الأحواض الهضبية المرتفعة المغلقة حلقاتها : البلقان فالأناضول فإيران الطبيعية حتى مشارف السند . هنا يمكن أن نتكلم عن « الإسلام المعلق » الذى يعتلى ظهور هذه القلاع الطبيعية الشماء .

ففى البلقان يقع مركز ثقل الإسلام فى هوامشها وحوافها الغربية الأكثر جبلية بصفة خاصة . فتجمع يوجوسلافيا وألبانيا فيما بينهما نحو ٣ - ٤ ملايين مسلم أو أكثر . وإذا كانت نسبة الإسلام فى ألبانيا هى العليا حيث تصل إلى حوالى الثلثين ، فإن قوته العددية لم تكن تزيد فى عام ١٩٥٥ عن ٧٠٠ ألف ، قل ثلاثة أرباع المليون أو المليون اليوم . وعلى العكس من هذا يوجوسلافيا ، لا يعدو فيها الإسلام ثمن السكان نسبة (١٢,٣٪) ، ولكنه قد لا يقل الآن عن الثلاثة ملايين عدداً . ويتركز مسلمو يوجوسلافيا خاصة فى مقاطعات الجبل الأسود والهرسك والبوسنة ، وتعد سراييفو وسكوبيه Skopje المركز الدينى للإسلام .

ثم نتجه جنوباً إلى اليونان حيث بلغ تعداد المسلمين فى عام ١٩٥١ نحو ١٠٥ آلاف . والإسلام فى اليونان يعنى تواً منطقة سالونيك التى كانت من مناطق الارتكاز التركى التقليدية فى العصر العثمانى . ويرتبط باليونان نواة أخرى من المسلمين فى قبرص ، ولكنها من أصل تركى خالص ، تناهز المائة ألف نسمة من مجموع الجزيرة الكلى الذى يربو قليلا على نصف المليون . ولا يتركز المسلمون فى قبرص فى قطاع بعينه ، ولكنهم أدنى إلى الانتشار فى كل أجزائها بصفة عامة .

فإذا ما عدنا إلى جذع البلقان ، يستمر الوجود الإسلامى على طول ساحلها الإيجى فى تراقيا ثم فى تركية أوربا حيث يتركز نحو ٣ ملايين من المسلمين . ومع ساحل البحر الأسود فى شرق بلغاريا يستكمل الإسلام نمطه الحلقى ، فنجد جزيرة إسلامية تستمر عبر الدوبرجه برومانيا حيث مصب الدانوب وتتعداه فى رشاش متطاير إلى مشارف بسارابيا . وللمسلمين فى بلغاريا تقدير رسمى وضع فى عام ١٩٤٩ يدور حول ثلاثة أرباع المليون من مجموع كلى كان قدره نحو ٧,٦ ملايين ، وكان ٦٣٨ ألفاً من الأتراك أصلا ، ١٢٣ ألفاً من البلغار الذين يعرفون باسم البوماك Pomaks . وليس لدينا تقدير حديث ، ولكن قد لا يزيد العدد اليوم عن ذلك كثيراً حيث قد تعرض كثير من البوماك الترك للطرد منذ عام ١٩٥٠ إلى تركيا .

أما تركيا نفسها فكتلة إسلامية ضخمة بلغ حجمها نحو ٣٤,١ مليوناً فى عام ١٩٧٠ بنسبة ٩٨,٩٪ للمسلمين . ولعلها الآن - كمصر - الرابعة أو الخامسة فى عدد المسلمين بين دول العالم . والحقيقة المركزية فى الإسلام التركى أنه تعرض فى الفترة الحديثة الكمالية وقبل الكمالية لعملية تكثيف وتبلور تمت بطرق إيجابية وسلبية. إيجاباً ، بنقل أكثر من ثلث مليون من المسلمين الأتراك من البلقان إلى الأناضول وإعادة نحو المليون من اليونان المسيحيين من آسيا الصغرى إلى وطنهم الأصلى . وسلباً ، بالمذابح والمعارك الحربية التى صفت عدداً آخر من اليونانيين فى الغرب ، وعدداً أضخم - يفوق المليون فى بعض التقديرات - من الأرمن فى الشرق . وبغض النظر عن الأسلوب ، فقد أدى هذا لا إلى مزيد من « التجنيس الإثنولوجى » داخل الأناضول فحسب ، وإنما كذلك إلى التجنيس الدينى شبه المطلق .

وإذ ننتقل إلى هضبة إيران - بمعناها الطبيعى - نلقى كتلة إسلامية تناهز الخمسة والأربعين إلى الخمسين مليوناً : نحو ٣١ مليوناً فى إيران ، ١٦ فى أفغانستان . وتنفرد إيران بأنها كتلة الشيعة الأولى فى العالم الإسلامى جميعاً ، فهنا

موطن الاثنا عشرية التى يتشعع نفوذها بدرجة ما غرباً فى جنوب العراق ، وبدرجة أقل شرقاً فى أفغانستان وبعض باكستان . ففى إيران لا تزيد السنية عن المليون أو المليونين ، وعلى العكس أفغانستان لا تزيد الشيعة فيها المليون . هذا وينبغى أن نشير ، على التخوم المشتركة بين كتلتى تركيا وإيران ، إلى ألسنة جبلية يرسلها الإسلام فى منطقة أرمينيا والقوقاز وأذربيجان من الاتحاد السوفيتى . فهنا يغطى الإسلام كثيراً من هذه العقدة الجبلية ثم ينحدر على سفوحها الشمالية هابطاً مع السهول حتى شواطىء قزوين الغربية فى توزيع نقطى متقطع يؤدى بالتدريج إلى الإسلام الغطائى الذى يغمر سهول طوران شمال وشرق البحر .

أخيراً ينتهى خط إسلام الهضاب الجبلية فى الشرق بكتلة باكستان الغربية . هنا شريحة طولية تتخذ من نهر السند محوراً لها ، وتمثل أكبر كتلة إسلامية منفردة فى كل القطاع الغربى من العالم الإسلامى ، وبكثافة نادرة كذلك . ففى عام ١٩٧٠ بلغ تعداد باكستان الغربية نحو ٥٩ - ٦٠ مليوناً يمثل المسلمون منهم ٩٧,١٪ . وكما فى تركيا ، مر الإسلام هنا بعملية استقطاب وتركيز ، دموية هى الأخرى أو على الأقل رهيبة ، تمت عن طريق المبادلات السكانية والهجرة بالجملة بين الهند والباكستان إبان التقسيم . ففى عام ١٩٤٧ عبر حدود البنجاب ٣,٥ ملايين ، وفى عام ١٩٤٨ كان المد الأساسى حين غادر ٦,٥ ملايين مسلم الهند إلى غرب البنجاب بباكستان الغربية ، بينما هاجر من الأخيرة إلى الهند ٦ ملايين من الهندوس والسيخ .

ومن الفولجا إلى سينكيانج

لا يبقى لنا الآن إلا أن نظل إطلالة من حالق ، من سقف البامير أو سطح إيران، على وسط آسيا الذى ينداح من التركستان الروسية حتى التركستان الصينية ، لننتقل من إسلام الهضاب إلى إسلام السهول . فهنا سهل حوضى ساحق الأبعاد سحيق الموقع ،

سهل طوران أو التركستان الروسية ، إن احتل موقعاً هامشياً من العالم الإسلامى ، فهو يكاد يحتل من العالم القديم قلبه الهندسى ، ويوشك أن يكون قطب القارية فيه ممثلا أبعد قلب اليابس عن المحيطات . غير أنه فى الشرق يرتفع سريعاً وشديداً إلى هضاب وجبال التركستان الصينية (سينكيانج) التى تترامى حتى مشارف منغوليا الداخلية والصين الحقيقية ، ويعود الإسلام عليها معلقاً مرة أخرى .

فى هذه الدائرة موطن للإسلام قديم وعريق ، مركز ثقله فى التركستان الروسية وأطرافه فى الصينية . ففى الأولى يتوزع الإسلام ابتداء من الفولجا ، أعاليه وأسافله، بل من جنوب الروسيا الأوربية شمال البحر الأسود والقرم ، ممتداً شمالا حتى عروض موسكو وبرم وأومسك ، غير بعيد - يعنى - عن الحدود الشمالية لجمهورية كازاكستان السوفيتية حالياً . وقد كانت سيادة الإسلام هنا تقليدياً سيادة مطلقة أو شبه مطلقة بين القبائل والشعوب التركية المغولية من تركمان وكازاك وقرغيز وتاجيك وأزبك ، إلى أن بدأ التوغل القيصرى فى القرن الماضى ثم تيار الهجرة السوفيتى الحديث من سلاف الروسيا الأوربية .

فإذا كان مجموع السكان الكلى فى المنطقة قد ارتفع كثيراً بالتنمية الاقتصادية الانفجارية وبالهجرة السكانية الداخلة ، فإن نسب الإسلام قد انخفضت كثيراً ، وكثيراً جداً أحياناً ، بينما لم يزد عدد المسلمين فى الأرجح كثيراً جداً . ويعطى تعداد عام ١٩٥٩ لجمهوريات وسط آسيا الخمس الرئيسية هنا نحواً من ٢٣ مليون نسمة ، غير أن من الصعب أن نقدر عدد المسلمين منهم . ولكن المعروف أن نسبة العناصر الروسية المهاجرة تتراوح الآن بين ٦٠٪ فى جمهوريات الشمال الأقرب إلى المصدر ، ٢٠٪ فى جمهوريات الجنوب الأبعد عنه .

ولما كانت جمهوريات الشمال هى إلى أبعد حد الأكثر تعداداً ، وإن كانت بحكم ضخامة مساحتها الأقل كثافة ، فإن هذا يعنى على الجملة أن مجموع عدد المسلمين هو

على الجانب السالب الخاسر ، وأنهم إنما يظلون الأغلبية محلياً فقط حيث حجم السكان الكلى ضئيل ، بينما يتحولون إلى أقلية متضائلة حيث النصيب الأوفر من مجموع السكان الكلى . وليس من الممكن التنبؤ إلى أى مدى سيغرق الطوفان السلافى العنصر المغولى الأصلى أو يطمس معالمه الإسلامية .

أما عن التركستان الصينية (سينكيانج) فهى إلى حد كبير امتداد مصغر للإسلام فى التركستان الروسية ، وهى حلقة الاتصال وجسر الانتقال بين الإسلام فى غرب آسيا وفى الصين الحقيقية ، وكان ممر زونجاريا الشهير على تخومها الشمالية ممراً للإسلام فى طريقه إلى الصين بمثل ما كان من قبل ومن بعد ممراً للطوفانات المغولية والتترية على غرب آسيا وشرق أوربا ، كما كان « طريق الحرير » على تخومها الجنوبية طريق الإسلام الآخر حول الحوض . ويعد المسلمون هنا إثنولوجيا بدرجة أو بأخرى امتداداً عبر الحدود لكثير من شعوب التركستان الروسية ، فإلى جانب عناصر الخوى واليوجور والسالار وخلخاس ونونجشيانج ، يضم الإسلام أيضاً عناصر من الأزبك والتاجيك والتتار والكازاك . ومن الصعب أن نحدد عدد المسلمين فى سينكيانج التى تبلغ كلها ٥ - ٧ ملايين ، ولكنهم على أية حال يشكلون الأغلبية الساحقة تقليدياً .

القطاع الشرقى من الإسلام

عالم آخر برمته يفصله عن كتلة الإسلام المتصلة فى الغرب برزخ أرضى عريض وصريح يمتد على محور شبه جزيرة الهند وهضبة التبت . ذلك هو القطاع الشرقى من العالم الإسلامى . وما يقصد بهذا أن الهند تخلو من الإسلام وإن فعلت التبت ، وإنما المسلمون ها هنا أقلية ضئيلة نسبياً أولا ، وأقلية مبعثرة فى خضم الهند الشاسع ثانياً. وهذا الانقطاع المحورى الرئيسى هو الذى يفسر انشطار دولة الباكستان إلى

إقليمين منفصلين يفصل بينهما برزخ أرضى عرضه ١٠٠٠ ميل كاملة . وتركيب الباكستان السياسى بهذا أبرز مظهر ونتيجة - ونوشك أن نضيف : وضحية - لانقسام هلال الإسلام إلى قطاعين رئيسيين .

وهذا ما يضع أيدينا على السمة الجوهرية فى صورة الإسلام فى هذا القطاع الشرقى . الجزرية هى تلك السمة ، والتقطع هو مفتاحها . فعلى النقيض من القطاع الغربى ، أهم ما يميز القطاع الشرقى أنه أرخبيل من الإسلام يتألف من كوكبة محدودة العدد من الجزر الحقيقية فى إندونيسيا أو المجازية فى تضاعيف الغابة الموسمية على القارة ؛ جزر صغير اتساعها نسبياً ولكن ضخم حجمها سكانياً بفضل كثافة عنيفة تعوض بها عن المساحة . ولاشك أن هذا التقطع الأسى يعكس إلى مدى بعيد درجة البعد عن قلب الإسلام فى مهده العربى ، فمع المسافة السحيقة من الطبيعى أن تضعف قوة الاندفاعة وأن يتقطع نفس الحركة . وكذلك وبنفس القوة فهو انعكاس لطبيعة المسرح الجغرافى هنا : أشباه جزر وجزر قطعتها الطبيعة بالبحار القارية من الخارج وبالجبال الوعرة فى الداخل .

وعلى الخريطة يبدو هذا القطاع الشرقى شقيقاً هزيلا للقطاع الغربى بالغ الضآلة فى امتداده ومساحته ، حتى ليوشك فى مجموعه ألا يزيد عن شريحة منه فى حجم الجزيرة العربية مثلا . ولكننا هنا فى عالم الكثافات السكانية الثرى ، وفى مشتل متوطن مزمن للبشرية لا يدانى فى اكتظاظه . من هنا تتكثف الحياة وتتكدس وتتضاغط إلى أعلى بدلا من أن تنساح أفقياً ؛ ومن هنا تتعارض دلالة الخريطة الجغرافية ودلالة الجدول الإحصائى ، ومن هنا وزن القطاع فى عالم الإسلام . فهنا ما لا يقل عن ٢٥٠ مليون مسلم تعادل خمسى المسلمين فى العالم بالتقريب .

ومن هذا الاحتشاد الضخم فى عدد قليل من النويات ، لم يكن غريباً أن نجد هنا فى القطاع كبرى دول العالم الإسلامى قاطبة الباكستان وإندونيسيا ، بل حتى

حيث يتحول الإسلام إلى أقلية نلقى متناقضة أكثر إثارة وهى أنه يظل قريباً من الصدارة كما فى الهند حيث تأتى - بعدهما - الثالثة بين دول العالم من حيث عدد المسلمين ، وحيث تضم منهم أكثر مما تضم أى دولة إسلامية بحتة فى القطاع الغربى بما فى ذلك نواته العربية !

ويمكن أن نحلل هذا الأرخبيل الإسلامى - مورفولوجياً - إلى خطين محوريين من فستونات الجزر القوسية الواضحة بدرجة أو بأخرى . ففى الشمال أقل الخطين وزناً ، حيث يجمع بين جزيرة الإسلام فى شمال غرب الصين وكوكبته المنتشرة فى شرقها حتى ينتهى إلى الفلبين . وفى الجنوب المحور الأساسى الذى يجمع بين جيوب الإسلام فى الهند وجنوب غرب الصين حتى يصل الملايو وإندونيسيا . غير أن من الخير لنا أن نتخذ الوحدات السياسية أساساً لدراستنا التحليلية ، ولتكن الصين بدايتنا حتى نلتقط الخيط فى أقرب موضع تركناه من القطاع الغربى .

إسلام الصين

فى الصين ظل المسلمون لفترة طويلة يقدرون تقليدياً بما يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠، ٤٠ مليوناً ، وربما وصل بهم البعض إلى ٥٠ مليوناً ، وكان هناك من يخمن نسبتهم بنحو ٥ ٪ من مجموع السكان . ولو صحت هذه الأرقام والنسب لحق أن نرفع حجم الإسلام الصينى إلى حد قد يجعل الصين - لا الهند - ثالثة دول العالم من حيث تعداد المسلمين . ولكن يبدو أن الإسراف فى التفاؤل كان يحكم هذه التقديرات ، فقد خرج تعداد الصين الشعبية الأول (١٩٥٣) بما لا يزيد عن ١٠ ملايين مسلم فقط ، أغلبهم من العناصر التركية ، وليس أقلهم خارج الصين الحقيقية ! فإن صح هذا الرقم ، الذى يهوى بنسبة الإسلام من جزء من عشرين إلى جزء من خمسة وسبعين ، فهو عدا

خيبة الأمل فيه جدير بأن يغير من تقديرنا لحجم الإسلام بعامة ولوزنه فى آسيا بخاصة.

ومهما يكن من أمر ، فالمسلمون فى الصين يوجدون فى كل مقاطعة ، غير أنهم يتركزون فى ثلاث جزر أساسية ترسم فيما بينها زاوية قائمة بالتقريب . أولها وأهمها هى منطقة الشمال الغربى فى مقاطعات كانسو (الأقرب إلى سينكيانج) ثم شنسى ، شانسى ، وهونان . ذلك مركز الثقل . أما الجزيرة الثانية ففى الشمال فى مقاطعات هوبى وشانتونج وتجاه تخوم منشوريا ، ومركزها التاريخى حول بكين . وفى الجنوب الغربى فى يونان تتوطن الجزيرة الثالثة . وليس يفصل بين هذه النوايا ثغرات حقيقية؛ فعلى الطرق بينها يظل للإسلام وجود خاص كما فى حوض ستشوان مثلا .

وعلى الفور يشكل هذا التوزيع مؤشراً إلى ، وانعكاساً لطرق دخول الإسلام فى الصين . فرغم أن العلاقات التجارية البحرية بين العرب والصين تسبق العصر الإسلامى بكثير ، ورغم جاليات التجار العرب ثم المسلمين فى مدن وموانى الصين الساحلية ابتداء من كانتون حتى بكين طوال أو خلال العصور الوسطى ، فإن البحر لم يكن قط طريق الإسلام إلى الصين . وحتى الوقت الحالى لا يزيد المسلمون فى موانى ومقاطعات السواحل عن عشرات من الآلاف . إنما دخل الإسلام الصين من الغرب ، من القارة ، من الطريق البرى ، ابتداء من سينكيانج وامتداداً لها . وهذا يفسر موقع جزر الإسلا، الثلاث على الأطراف الغربية للصين الحقيقية ، كما يوضح دور نواة الشمال الغرب الرئيسية كأرض الزاوية فى التوزيع والانتشار والتى لعبت دور الرافعة فى الإسلا، شرقاً وجنوباً . ورغم أن بعض العناصر العربية نقلت الإسلام إلى الصين مبكراً وذابت فى السكان ، فإن العناصر المغولية التركية من رحل التركستان بشقيها هى نقلة وحملة الإسلام الحقيقيين إلى الصين ، وذلك فى هجراتهم وغزواتهم المتواترة من قلب الاستبس إلى الصين . وهذا يفسر أن كثيراً من المسلمين فى الصين ينتمون إلى نفس

الشعوب والقبائل الإسلامية التى رأينا فى التركستان كالسالار والخوى واليوجور ..إلخ .

فى الهند والباكستان الشرقية

فأما فى الهند فقد عُد فى عام ١٩٥١ نحو ٣٥,٤ مليوناً من المسلمين من بين مجموع السكان البالغ يومئذ ٣٥٦ مليوناً أى بنسبة العشر تقريباً . واليوم إذ تعد الهند ٥٥٠ مليوناً (١٩٧١) فإن حجم الإسلام بها لا يقل عن ٥٥ مليوناً وقد يصل إلى ٦٠ مليوناً . وهذا يزيد على نصف سكان الباكستان جميعاً وعلى ضعف عدد الهندوس فى كل الباكستان ، ويؤكد أن التقسيم السياسى لم يحل المشكلة الدينية ولا جانس التركيب الدينى . ورغم أثر الاستعمار التحديدى والتجميدى على توسع الإسلام فى الهند ، فهو لا يعدم تحولات هامة حتى الآن ، ولو أنها تتم أساساً بين طبقة المنبوذين الذين قد يمكن اعتبارهم الاحتياطى الكامن للإسلام فى هند المستقبل .

ومراكز الإسلام فى الهند نوعان : الأول مناطق تبدو كالهالات أو أشباه الظلال حول شطرى الباكستان اللذين يأخذان دور النواة والركيزة . وهذه المناطق ترسم بالتالى شبه خط يصل بين النواتين بطول نهر الجانج . ويتمثل هذا فى كشمير التى يسودها الإسلام وتؤلف فى واقع الأمر ورغم الوضع السياسى استمراراً وجزءاً من كتلة الإسلام فى الباكستان الغربية . كذلك يتمثل حول الباكستان الشرقية حيث نجد نسباً مرتفعة بوضوح فى الإسلام ، فتصل إلى ٢٢,١٪ فى أسام ، إلى ٢٠٪ فى البنغال الغربية (التى تتبع الهند) ، وإلى ١٤,٣٪ فى أوتاربرا ديتس التى تلاصق البنغال الغربية تجاه الغرب .

بعد هذه المناطق جنوباً تنخفض نسبة الإسلام بشدة حتى تعود مرة أخرى فترتفع نوعاً فى جنوب الهضبة على شكل رقع وجيوب ، خاصة فى حيدرأباد ومدارس (٩,١٪) ، مع ميل واضح إلى الازدياد على السواحل وخاصة الغربية . وهذه الجزر الإسلامية فى جنوب الدكن هى النوع الثانى من أنماط توزيع الإسلام فى الهند . وإليها ينبغى أن نضيف إسلام سيلون حيث جاءها من البحر وحيث يقدر عدد المسلمين ، وأغلبهم من التاميل ، بنحو المليون أو أكثر من ١١ - ١٢ مليوناً أى بنسبة العشر تقريباً . وبالمثل نضيف أرخبيل جزر الملديف المرجانية - ١٠٠ ألف نسمة ويزيد - كلهم يدينون بالإسلام على وجه الاطلاق .

وهنا لابد أن نتساءل لماذا ينشطر مجال الإسلام فى الهند إلى دائرتين منفصلتين، واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب ، بينهما برزخ لا يلتقيان ، فضلا عما يترتب على ذلك من اختلاف فى العنصر ، هند - أوربيون فى الشمال كاخوانهم فى العقيدة فى الباكستان ، دارفيديون فى الجنوب . تلك فى الحقيقة نتيجة منطقية إذا اعتبرنا الحركة التاريخية والظروف الجغرافية . فنطاق الشمال هو امتداد مباشر لكتلة الإسلام المتصلة فى غرب آسيا حتى الباكستان الغربية . فسهم الإسلام هنا أتى من الشمال . أما دائرة الجنوب فقد أتاها الإسلام من الجنوب ، من مصدر مختلف هو البحر، على يد التجار العرب وربما الإيرانيين من جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج . ومن بوابة ساحل الملبار توغل إلى الداخل حتى وسط الدكن شمالا وحتى سيلون جنوباً. وهذا ما يفسر فى نفس الوقت تكاثف الإسلام نسبياً على ذلك الساحل الغربى.

بعد هذه الشظايا المتناثرة نسبياً فى الهند نصل إلى أول كتلة كبيرة فى هذا القطاع الشرقى من العالم الإسلامى ، وذلك فى الباكستان الشرقية . فهنا كان ٤٣,٨ أو ٤٤ مليون مسلم من مجموع السكان البالغ زهاء ٥٧ مليوناً عام ١٩٦٥ والذى وصل الآن (١٩٧١) إلى ٧٠ مليوناً . وهنا يبرز فارق بين شطرى الباكستان . فرغم

أن الباكستان الشرقية أكثر سكاناً من الغربية ، فإنهما أدنى إلى التعادل فى قوة عدد المسلمين ، وذلك لأن نسبة الإسلام فى الشرقية أقل منها فى الغربية . فبينما وجدنا ٩٧,١٪ من كل سكان الباكستان الغربية من المسلمين ، تضم الشرقية أقلية هندوكية كبيرة ولاتزيد نسبة الإسلام عن ٧٦٪ . ولهذا فإذا تعادلت قوة المسلمين العددية المطلقة فى الكفتين ، فإن الكفة الغربية ترجح بالنسبة . ولعل هذا أن يفسر لماذا كانت الباكستان الغربية هى الإقليم النواة ومركز الثقل السياسى فى الدولة الدينية المشطورة .

هذا وقد تعرضت الباكستان الشرقية كالغربية لتبادلات سكانية ضخمة ، ولكنها أقل نسبياً ، مع الهند بعد التقسيم . ففى عام ١٩٤٨ - ١٩٥٠ قذفت الاضطرابات الدينية بأربعة ملايين لاجىء منها إلى الهند ، وتلقت بالمقابل مليون مسلم . ومن المفيد أن نذكر أن مسلمى الباكستان الشرقية ينتمون إثنولوجياً إلى نفس العنصر الذى ينتسب إليه مسلمو الباكستان الغربية وهو الهندو - أوربيين أو الهندو - آريين.

جنوب شرق آسيا

وإذ نتابع رحلتنا إلى نهاية هلال الإسلام فى جنوب شرق آسيا ، لابد أن نذكر أولا حقيقة أساسية مفتاحية . فهنا لم يأت الإسلام عن طريق القارة أى من الطريق البرى ، وإنما بالطريق البحرى جاء . أما لماذ انتهى دور الطريق البرى عند هذا الحد وأعطى مكانه للطريق البحرى ، فلعامل جغرافى طبيعى بحت ومقنع بما فيه الكفاية . فإلى الشرق من الباكستان الشرقية حيث « كوع » الهملايا الشهير ، تتحول السلسلة الجبلية الألبية إلى محور شمالى - جنوبى وتقوم كحائط شاهق عريض شديد الوعورة كثيف بالغابات . وقد كان هذا هو العامل الأساسى الذى فصل الهند حضارياً وتاريخياً إلى حد كبير عن الهند الصينية ووضع حداً لانتشار نفوذها الثقافى والسياسى منذ

فجر التاريخ ، وهو نفسه الذى أوقف تقدم الإسلام فيما بعد فى هذا الاتجاه ، حتى جاء راكباً البحر من الجنوب . وهذا ما يفسر انقطاع الإسلام وتفتته المتزايد على القارة بعد أن نغادر الباكستان الشرقية ، بل يفسر كذلك لماذا استمدت جزيرة جنوب غرب الصين إسلامها من الشمال الغربى وليس من كتلة الباكستان الشرقية رغم قربهما النسبى .

ولمحور الطريق البحرى قطبان أساسيان : الجنوب العربى ، وخاصة حضرموت ، كمركز إرسال ، وشبه جزيرة الملايو كمركز استقبال وإشعاع . فالملايو هى بؤرة توزيع ومحطة توصيل الإسلام فى كل دائرة الجنوب الشرقى من آسيا . وكما أتى الإسلام إلى الملايو من البحر ، فقد تشعع منها وهاجر - والملايون أهل بحر وتجارة - فى كل جنوب شرقى القارة بالبحر أساساً . بل إن التركيب الجنسى للمسلمين فى أغلب وحدات جنوب شرق آسيا يتحلل فى النهاية إلى قاعدة من الأهالى المحليين وخميرة نشطة من الملاويين المهاجرين ! والمحصلة النهائية أن الإسلام هنا إسلام سواحل فى الدرجة الأولى، والجاليات الإسلامية تقتصر على تجمعات ساحلية ، خاصة حول مصبات الأنهار والدالات الرئيسية ، وقل أن يتوغل فى داخل اليابس .

ولنفصل . جذع الهند الصينية نفسه « انخفاض » إسلامى أو شبه فراغ تقريباً. فليس ثمة فى بورما إلا ٤٪ مسلمين أو نحو المليون إلى المليون ونصف المليون تقريباً. ومثل هذا العدد أو أقل - ٧٠٠ ألف إلى مليون - نلقاه فى تايلاند . غير أننا إذا قلنا الإسلام فى تايلاند فقد قلنا فى أقصى جنوبها المتطرف ، أو القطاع الشمالى الدقيق من شبه جزيرة الملايو وليس جذع تايلاند نفسها . فالحقيقة أن إسلام تايلاند يمتاز بالتركيز العنيف شبه المطلق فى هذا القطاع ، وهو بهذا ليس إلا امتداداً عبر الحدود السياسية المصطنعة لكتلة الإسلام فى الملايو . وبالفعل فقد كانت تلك المنطقة أصلا من ولايات الملايو ، كما تخضع اليوم لنفوذها وإشعاعها الدينى خاصة من ولاية كيلانتن الملاصقة .

ولكن قبل أن نعبر إلى الملايو ، هناك كمبوديا وفيتنام . فعلى الجانب الآخر من خليج سيام ، الذى يمكن عبوره بالشراع فى ساعات ، يمتد نفوذ إسلام الملايو على الحافة الجنوبية للهند الصينية ففى كمبوديا أكثر من ١٠٠ ألف مسلم يستقرون عموماً على الساحل وشواطىء الأنهار ، زراعاً وسكان مدن ، حول نهر الميكونج وبحيرة تونلى ساب . ويتألف هؤلاء المسلمون من العنصر الملاوى المهاجر الذى أدخل الدين هنا ، ومن عنصر التيام Cham المحلى (وهكذا ينطق ولكن هكذا تقليدياً يكتب) الذى تحول على أيديهم فى تاريخ حديث جداً . ومن هؤلاء التيام المسلمين شريحة قزمية تقع عبر الحدود فى فيتنام الجنوبية على الساحل جنوب نها ترانج Nha Trang ولا تزيد عن الخمسة آلاف وتعرف بالتيام بانى Cham Bani (هل تعنى بنى الإسلام ؟ - هكذا يتساءل بيير روندو) . كذلك تعود الملاوية بجزيرة إسلامية صغيرة أخرى فى منطقة Chauduc إلى الجنوب الغربى من سايجون .

من هذا الإسلام الفسيفسائى نعود إلى الملايو ، الكتلة - الأم هنا ، لنجد نحواً من ٥,٥ ملايين من المسلمين يؤلفون حوالى ٥٥٪ من سكان الملايو البالغين نحو ١٠ ملايين فى عام ١٩٧١ . أغلبية ، ولكنها ضئيلة بوضوح ، ولا تتناسب كما يلوح مع الدور التاريخى الريادى للملايو فى بث الإسلام « وضخه » هنا . غير أن الهجرة الحديثة هى السبب ؛ فقد أغرق طوفان الهجرة الهندية ، ولكن الصينية بالدرجة الأولى، أغرق العنصر الملاوى المسلم فى القرن الأخير . ورغم أن الهجرة الهندية أضافت إلى قوة الإسلام بعض الأعداد ، فقد كان الحساب الختامى خاسراً بسبب الهجرة الصينية السائدة . وحيث تتبلور هذه الهجرة إلى الذورة فى سنغافورة ، ينخفض الإسلام إلى أدناه ، فلا يزيد عن ١٢٪ من المليونين ونيف التى تؤلف سكان الجزيرة . ويتركز الإسلام فى الملايو ، مع كثافة السكان العامة ، على الساحل الغربى بصفة خاصة .

إندونيسيا هى ثانى أكبر دولة إسلامية فى العالم ، وقد سجلت فى عام ١٩٦٥ من السكان ١٠٥ مليون نسمة ، لاشك تعدّت العشرين بعد المائة مليون الآن ،

الأغلبية الساحقة منها - ٨٠٪ - من المسلمين . أى أن إندونيسيا تضم سواء من السكان أو من المسلمين مثلما يضم العالم العربى بالتقريب . وتكاد جزيرة جاوه وحدها بتعدادها البالغ نحو ٦٥ - ٧٠ مليوناً تكاد أن تضم من المسلمين على رقعتها التى لا تزيد عن ٥١ ألف ميل[٢] مثلما تضم إفريقيا العربية البالغة ٣,١ مليون ميل مربع مساحة ! هذا وفى المستعمرات البريطانية السابقة فى بورنيو - صباح وسرواك وبرونى من اتحاد ماليزيا حالياً - نحواً من ٩٠٠ ألف مسلم ، قل مليوناً . وتحمل حركة التهجير المخططة التى تتبعها إندونيسيا إلى « الجزر الخارجية » المخلخلة السكان ، تحمل معها انتشاراً جغرافياً محققاً للإسلام فى الأرخبيل المترامى .

لا يبقى الآن فى جولتنا إلا الفلبين - أرض الشمس المشرقة فى العالم الإسلامى! - حيث مسلمو المورو Moros ، كما سماهم المستعمرون الإسبان على نحو ما عرفوا المسلمين فى إسبانيا والمغرب ، والذين حاربوهم بعنف وقاوموهم كما فعلوا هناك أيضاً . ويتراوح تقديرهم بشدة بين المليون (٩٠٠ ألف) وبين الأربعة ملايين ! فهم إما جزء من عشرين من سكان الفلبين وإما خمسهم - بحسب المراجع ... وهم بعد هذا يتركزون أكثر ما يتركزون فى جزيرتى مندناو وسولو ، أى فى الجنوب مما يشير إلى أن الإسلام هنا امتداد لكتلته الأساسية فى الأرخبيل الإندونيسى مثلما يشير إلى أن مصدره إنما هو عن طريق الجسر الجزرى وليس من القارة مباشرة . وبالفعل فإن مسلمى الفلبين يتألفون جنسياً من عنصرين : الملايو المهاجرين الذى جلبوا الإسلام بعد القرن الحادى عشر ، وقبائل التاجال الوطنية التى أسلمت على أيديهم فى القرن الرابع عشر .

* * *

الفصل الثانى

نظرية عامة فى مورفولوجية العالم الإسلامى

هل يمكن أن نضع نظرية عامة عاملة تجمع شتات العالم الإسلامى فى توزيعه الكوكبى ، وتستقطب تفاصيله فى معادلة إقليمية محددة ؟ لست أقصد تلك النظريات « الإيكولوجية » الشائعة من مثل « الإسلام دين الصحراء » أو « الإسلام دين السهول » ، دين السهوب والسهول كما قد نجمع بينهما فى تعبير واحد . فمثل هذه العلاقات المفترضة إن لم تتعارض مع الحقائق الواقعة فهى على أحسن تقدير ارتباطات جزئية لا تعدو أنصاف حقائق . إنما المقصود نظرية « كورولوجية » - يعنى إقليمية - تلخص وتفسر معاً ما يمكن أن نسميه بتعبير جاستون بارديه معالم «الطبوغرافيا الاجتماعية topographie sociale » [1] كما تتباين أو تتشابه داخل هذا الجسم البشرى الهائل الذى هو الإسلام . فى كلمة واحدة ، هدفنا فى هذه الدراسة هو تحديد أقاليم الإسلام الجغرافية ، بالمعنى الواسع للأقاليم الجغرافية أى بأبعادها الطبيعية والبشرية ، التاريخية والدينية .

وليس يكفى لهذا أن نرسم صورة مهما تكن مفصلة لتوزيع وانتشار الإسلام والمسلمين ، إذ لابد بعدها من نظرة كلية أو أحادية تختزل أبعادها وتكثف ملامحها فى قانون مكانى أو شبه قانون ، خفيف الحمل فى الذاكرة مثلما هو سهل التطبيق فى التفاصيل والجزئيات . لابد باختصار من العثور على مفتاح عام passepartout للعالم الإسلام يضع أيدينا على دهاليزه ويفتح لنا مغاليقه .

والعالم الإسلامى - بداهة - ليس منطقة حضارية بالمفهوم الأنثروبولوجى إلا فى معنى ضيق جداً على أكثر تقدير ؛ ولهذا فليس فى نظرية المنطقة الحضارية Kulturkreislehre هذا المفتاح المنشود . غير أن ذلك لا يمنع أن من الممكن أن نعالج

---

(١) G. Bardet, L'Urabanisme, Coll. Que Sais - Je ?, 1947.

العالم الإسلامى كله على غرار إقليم من أقاليم الجغرافيا الحضارية أو الإيكولوجيا البشرية ، أو على نحو ما نعالج أقاليم المدن فى جغرافية المدن أو علم اجتماع المدن ، أعنى كإقليم عقدى كما يسمى [١] ، له قلب وله أطراف ، تتراوح داخله وبينهما الظاهرة المعنية فى درجة تبلورها ومدى كثافتها ونسب حدوثها .

والشىء المهم والجدير بالالتفات فى مثل هذه الدراسات أنه ما دامت الظاهرة قد نشأت وانبثقت فى مركز بؤرى محدد هو القلب ، ثم انتشرت حوله بعيداً أو قريباً ، فمن المنطقى أن تتراتب تلك الملامح والمقاييس ترتيباً منتظماً ، تدريجياً ، تنازلياً ، حتى الأطراف . وهذا التراتب التدريجى يعطينا ما يعرف بالانحدارات الإيكولوجية gradients . وبديهى أن تأخذ هذه الانحدارات شكلا حلقياً تتتابع فيه من القلب إلى الأطراف حلقات متحدة المركز متزايدة الأقطار ، كحلقات الماء تلقى فيه بحجر .

وبديهى كذلك أن الظاهرة المعنية إذا انتشرت من القلب إلى الأطراف على محاور انتخابية محددة ، أكثر منها انتشاراً عالمياً أو غطائياً شاملا ، فلا مفر من أن يتراكب على هذا النمط الحلقى القاعدى نمط متشعع من المركز ، بحيث تصبح المحصلة النهائية أقرب إلى النظام الحلقى المشع radio-concentric وأشبه فى نسيجها ببيت العنكبوت ، وتتحول الانحدارات المختلفة من نمط حلقى فقط إلى نمط القطاعات الحلقية [٢].

هذا الهيكل النظرى العام الذى نلقاه فى كثير من الظاهرات الاجتماعية والمركّبات الحضارية ، وبخاصة داخل وحول المدن ، يمكن أن نجده فى أساسياته

---

(١) P. James & C. Jones, (eds.) American Geography. Inventory & Prospect, 1954, pp. 36 - 7.

(٢) E. Bergel, Urban Sociology, McGraw Hill, 1955; G. Ericksen, Urban Behavoir, N., Y., 1954; R. E. Dickinson, City Region & Regionalism, Lond.,

وتفصيلاته فى العالم الإسلامى ، ويمكن فى يسر أن نتبناه مفتاحاً لنظرة أو نظرية عامة فى مورفولوجيته . فلما كان الإسلام قد نشأ فى نقطة معينة ثم انتشر منها فى جميع الجهات إلى أقصى أبعاد العالم القديم ، ولكن على محاور انتخابية وفى خطوط مقاومة دنيا بعينها ، فإن هنا بوضوح قلباً وأطرافاً تتحلق بينها عناصر الإسلام وملامحه بالتدريج الطبيعى فى انحدارات يمكن قياسها وعلى محاور وفى قطاعات يمكن تحديدها .

فأما القطاعات فيمكن تحديدها - استاتيكياً - من واقع توزيع وتوقيع الإسلام الراهن ، بالإضافة - ديناميكياً - إلى خطوط ومحاور حركته فى تاريخ انتشاره وزحفه . وأما الانحدارات فيمكن التعرف عليها بالحدوث النسبى لعدد من العناصر المختلفة التى تؤلف « مفاتيح » المركّب الإسلامى الكامل كما تتبلور وتتكثف كالحزمة فى قلب العالم الإسلامى نفسه ، وأعنى به العامل العربى الذى هو ينبوع الإسلام ونافورته تاريخياً وجغرافياً . فإذا ما أتيح لنا تحديد هذه المحاور وتلك الانحدارات ، تخلقت لدينا شبكة ملتحمة من القطاعات والحلقات أشبه فى أصولها وفى هيئتها بقطاع فى جذوع الأشجار الضخمة تتوالى فيه طبقات النمو السنوى للحاء كحلقات واضحة المعالم تتعامد متشعبة عليها عروق الألياف أو خيوط النسيج العنام .

غير أننا لا ينبغى أن ننتظر من الإسلام هيكلا مورفولوجياً يحقق هذا النمط النظرى تحقيقاً صارماً مثالياً بطبيعة الحال . فمن ناحية يجنح قلب العالم الإسلامى التاريخى إلى أن يقع فى غربه أكثر منه فى وسطه الجغرافى ، كما أن الإسلام امتد على محاوره الشرقية - الغربية بقوة وانطلاقة أعظم وأرحب منه على محاوره الشمالية - الجنوبية . وفى النتيجة فإن الإطار الخارجى العام للعالم الإسلامى أدنى إلى الشكل البيضاوى منه إلى الدائرة المنتظمة ، بل إلى البيضاوى المبتور أو القطع الناقص منه إلى نصف الدائرة . ومن ناحية أخرى فإن محاور تمدد وتشعع الإسلام ليست متصلة

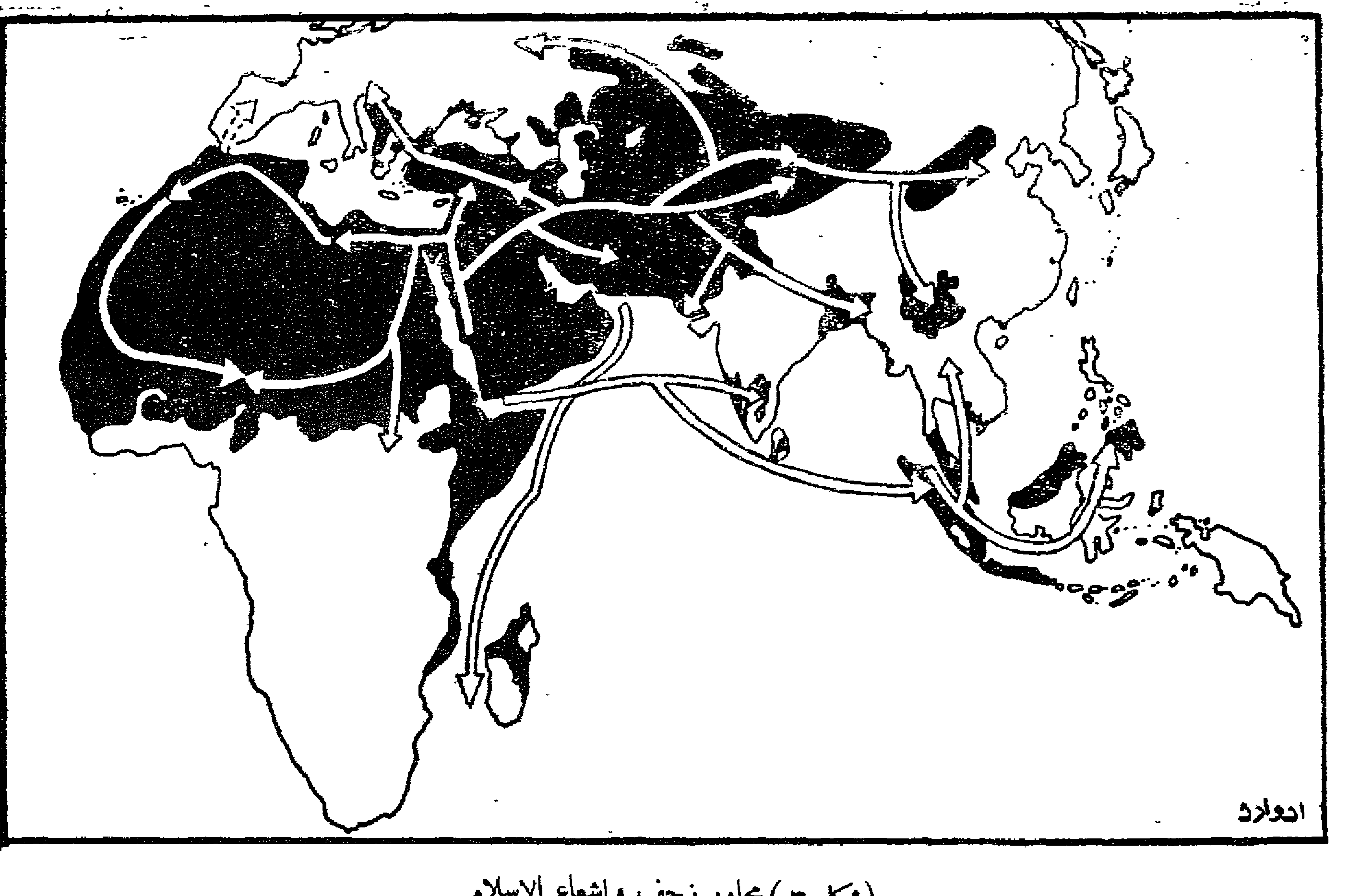
بالضرورة تاريخياً ولا هي مطردة جغرافيا ، فكثيراً ما تتقطع في بعض مراحل أو تتوقف بفعل الفواصل المائية ، وخاصة المحيط الهندي الذي يحتل مساحة كبيرة من وسط العالم الإسلامي . غير أنه بعد كل هذه التحفظات تظل الحقيقة قائمة من أن هيكل الإسلام يشخص بسهولة خطوط وملامح النظرية الحلقية - المشعة . ولا يتبقى لنا قبل التطبيق إلا أن نعرض بإيجاز ولكن بغير إخلال لأسس تصنيف شبكة المحاور والحلقات .

محاور إشعاع الإسلام

وتعنينا منها هنا المحاور الأسيَّة الأساسية ، ومن المفهوم بعد ذلك أن لكل ، : ا محاور فرعية ثانوية وثالثة تملأ الفراغات البينية وتسد الثغرات الجانبية . كما أن لكل منها أكثر من بؤرة انتشار أو محطة توصيل وضخ خارج الجزيرة العربية ذاتها . فبوجه عام غطى دور عرب الجزيرة المباشر منطقة العالم العربي في حدودها الحالية تقريباً ، وبعدها سلموا المشعل في الغالب الأعم إلى بؤرات ثانوية تولت دفعه إلى آفاق مكانية أبعد . وقد تتعدد هذه البؤرات الثانوية على الطريق ، حتى لتتخذ الحركة في مجموعها ميكانيكية أشبه شيء بسباق التتابع .

ثمة من هذه المحاور ثمانية تتشعع كتروس العجلة ، وتتفق إلى مدى بعيد مع التوزيع الفعلي لكتل المسلمين الرئيسية في العالم القديم . وبعض هذه المحاور خدم أكثر من قارة ، وعلى هذا الأساس نجد منها ٤ محاور تختص بآسيا ، ٣ بإفريقيا ، ٣ بأوربا .

فالمحور الأول هو المحور النيلي الذي بدأ بمصر ومنها انطلق . فبعد قرنين أو ثلاثة من الهجرة كانت مصر في مجموعها قد تحولت إلى الإسلام ، وبعد وقفة ليس



(شكل ٣) محاور زحف وإشعاع الإسلام

بالقصيرة أمام النوبة استطالت أحياناً إلى القرن ١٤ اندفع السهم فى السودان النيلى على محور ذى ثلاث شعب يميناً وقلباً ويساراً ، بحيث كان الإسلام قد غطى كل السودان الشمالى فى غضون العصور الوسطى . وإذا كان المد قد توقف جنوباً عند بحر العرب ، فقد استدار مع الشعبة اليسرى نحو الغرب إلى سودان السفانا حتى منطقة بحيرة تشاد ، ليغلق - مع المحور الثانى - دائرة كاملة من حركة الإسلام التاريخية تتحلق بوضوح حول الصحراء الكبرى وتتبع بأمانة سواحلها وشواطئها .

فهذا المحور الأخير هو الذى انشعب عن الأول فى مصر ، وانطلق غرباً على طول ساحل البحر المتوسط ليغطى كل شمال إفريقيا بالإسلام فى غضون القرن العاشر ، هذا عدا شعبة منه عبرت البحر المتوسط إلى إسبانيا وصقلية . إلى أن استدار جنوباً مع المحيط الأطلسى على حواف الصحراء الكبرى (القرن ١٠ - ١٢) واصلا إلى سفانات السودان الغربى ابتداء من القرن ١١ - ١٣ ، ثم متمماً دورته عكس عقارب الساعة على طول « شارع » السفانا الرئيسى ليلتقى فى النهاية بصنوه النيلى عند بحيرة تشاد حوالى القرن ١٣ .

وقد استمر استكمال هذا القطاع حتى القرن ١٦ . وقد خرجت من المحور فروع ثانوية عديدة قطعت الصحراء بالطول والعرض ، ولكن بالطول أساساً مع طرق القوافل ونقط الواحات ، حتى غطت وجه الصحراء الكبرى بإسلام غطائى لا ثغرة فيه ، وإن كان بعض الرقع المتطوحة السحيقة الموقع والعزلة قد تأخر إسلامه حتى القرن الماضى ، كواحة الكفرة التى استمدت اسمها من هذه الحقيقة التاريخية . كذلك خرجت من المحور روافد عديدة إلى غابة السودان الغربى لازالت تتقدم فيها حتى اليوم [١] .

---

(١) Thomas W. Arnold, The Preaching of Islam, Lond., 1935

راجع أيضاً : حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٥٨ - ١٦٦ .

المحور الثالث - وهو الثالث أيضاً والأخير فى إسلام إفريقيا - هو محور شرق إفريقيا ابتداء من القرن الإفريقى - بل السودان - حتى الرأس . ومركز التصدير هنا هو الجنوب العربى البحرى أساساً . فقد عبر عرب الجنوب البحر إلى شرق السودان وانساحوا فيه منذ صدر الإسلام ، وإلى القرن الإفريقى حيث بثوا الإسلام فى شرق الحبشة والصومالات منذ القرن ١٠ ، ثم إلى ساحل الزنج والبنادر دلفوا طوال القرون التالية ، ومنه جنوباً على طول الساحل حتى الزمبيزى ومدغشقر وأرخبيلها . ولم يتقدم المحور جنوباً بعد هذا إلا حديثاً فى القرن الماضى على أيدى الهنود المسلمين المهجرين إلى جنوب إفريقيا ، حيث وصلوا به إلى الرأس[١] .

ومع الهلال الخصيب - الشام والعراق - الذى تمّ إسلامه فى القرون الثلاثة الأولى من العصر الإسلامى ، ينفتح الطريق إلى المحور الرابع الذى حمل الدعوة ليرتقى بها سقف هضبة إيران الطبيعية برمتها (القرن ٧ - ٨) حتى وصل بها على حوائطها الشرقية إلى ممر خيبر (القرن ١٠) . وتلك الفتحة الطبيعية التاريخية الحاسمة تعد بمثابة ترموبيل الهند ، فلم يكن - كالقدر - مفرٌ من أن ينزل معها الإسلام كاسحاً ومغطياً سهول الهند الشمالية ، السند والجانج حتى خليج بنغال شرقاً ومشارف هضبة الدكن جنوباً ، وتم ذلك حتى القرن ١٣ . والمحور فى مجموعة محور مركز مكثف لم يكد يترك ثغرة على الطريق ، ولكنه من الناحية الأخرى لم يرسل فى نهاياته فروعاً ثانوية مذكورة سواء شرقاً إى الهند الصينية أو شمالا إلى التبت ، فهنا وهناك تعقد التضاريس بشدة أو تتعامد « نواتها » على اتجاه المحور أو تتحول البيئة الطبيعية إلى مناطق طرد بشرى محقق .

ومن أواسط المحور السابق فى إيران كبؤرة ثانوية ، يبدأ المحور الخامس إلى سهول التركستان المترامية شرق بحر قزوين (الخزر حينذاك) ، ليرسم قوساً عظيماً عكس عقارب الساعة يلف السهوب لفاً ويطوى ما وراء النهرين ، منتهياً شمال البحر

(١) Pierre Roudot, L' Islam et les Musulmans d'Aujourd'hui, Paris, 1960, t. II, pp. 32 et seq.

وغربه إلى الفولجا وتخوم البحر الأسود . تلك الانطلاقة هى فى واقع الأمر التى جعلت من وسط آسيا مشتلا من مشاتل الإسلام المبكرة والرائعة التى ارتبطت وثيقاً بحضارة المشرق العربى فى أوج عصرها الإسلامى . وقد وصل الإسلام إلى ما وراء النهرين واستقر فى القرن ٨ - ١٠ ، ولكنه لم يكتمل نهائياً إلا حتى القرن ١٣ . وإذا كان هذا المحور هو ثانى محاور انتشار الإسلام فى آسيا ، إلا أنه باستدارته غرباً أصبح أيضاً محوراً من محاور دخوله إلى أوربا .

ومن العقد السابقة التى خرج منها محور التركستان ، خرج المحور الصينى . والواقع أن حوالى « عقدة البامير » الطبيعية ثمة عقدة إسلامية تاريخية حقيقية خرجت منها المحاور الثلاثة إلى الهند والصين والتركستان ، عدا محوراً رابعاً غرباً إلى تركيا . فمن القرن ١٣ بصفة جدية - وقبله بكثير فى الحقيقة بصورة عابرة - بدأ الإسلام مع التجار العرب والفرس ، ومع الجنود أيضاً ، يصعد ذرى قلب آسيا الجبلية الهضبية فى طريقه إلى عالم الصين . وإذا كان هذا المحور يرتبط جملة بالتركستان الصينية (حوض سينكيانج) ، فقد انشعب تفصيلا إلى شعبتين تحفان بهامشيه : شمالا حيث الممرات الطبيعية الرئيسية خاصة ممر زونجاريا ؛ وجنوباً حيث عقود الواحات النظيمة خاصة طورفان ، وحيث طرق التجارة التقليدية التاريخية لاسيما « طريق الحرير »[(١)].

ثم تعدو الشعبتان فتلتحمان فى النهاية لتدخلا الصين فى شمالها الغربى فى القرن ١٣ تقريباً ، ومنها يبدأ مركز توزيع ثانوى على شكل زاوية قائمة : شرقاً إلى شمال الصين ، وجنوباً إلى جنوبها الغربى . ومن الشعبة الأولى تسرب الإسلام قليلا إلى منشوريا ، ومن الجنوبية انساب قليلا كذلك إلى أقصى شمال الهند الصينية فى بورما . ويمكن أن يؤرخ لانتشار الإسلام الحقيقى فى الصين بين القرنين ١٣ - ١٦ ، وحتى بعدها ظل بصفة ثانوية .

(١) S.A.S. Huzayyin, Arabia & the Far East, Cairo, 1942, pp. 266 - 269.

لا يبقى لنا الآن على اليابس إلا محور واحد وأخير هو المحور التركى ، الذى بدأ من عقدة وسط آسيا بصفة عامة ، وأخذ مساراً عكسياً مضاداً لمسار المحور الإيرانى الهندى ، فاتجه غرباً عبر إيران إلى الأناضول حيث تم إسلامها منذ القرن ١٣ ، وبعدها قفز إلى البر الأوربى لينقل الإسلام إلى البلقان حتى الدانوب ما بين القرنين ١٤ ، ١٧ . وإذا كان هذا المحور أسيوياً فى أصله فهو أوربى بأثره ، بل هو أهم المحاور الثلاثة التى غزا الإسلام عليها أوربا وكان أشدها توغُّلاً فيها .

ثمة ثامناً وأخيراً محور بحرى يترك اليابس إلى المحيط ليقفز بالإسلام قفزة واسعة عبر المحيط الهندى إلى عالم الجزر وأشباه الجزر فى جنوب شرق آسيا . جنوب الجزيرة العربية ، مرة أخرى ، هو بؤرة التوزيع . فمن هذه البيئة الصحراوية الجبلية الطاردة الملاّحة ، خرج بحارة وتجار العرب والإسلام على الطريق المائى التاريخى ، طريق البهار كما قد نسميه ، حيث تركوا خميرته فى جنوب الهند وسيلون (القرن ٨) كمرحلة على الطريق ، ولكن دون أن يتوغل فى الأولى بما يكفى ليقابل محور إسلام الهند الشمالى ، ثم فى الملايو وإندونيسيا كنهاية المطاف حيث استقر الإسلام بقوة ونشاط منذ القرن ١٣ ، وبعامة من القرن ١٢ - ١٥ [١] .

غير أن ملتقى الملايو وإندونيسيا كان بدوره بؤرة توزيع ثانوية ، خرج منها الإسلام مع أبنائها ، وهم أيضاً أهل بحر وتجارة ، ليتشعع كأصابع اليد إلى جنوب الهند الصينية والفلبين ، فدخل الأولى فى تاريخ متأخر نسبياً ، والثانية فى القرن ١٤ . كذلك وصل الإشعاع إلى ساحل الصين الجنوبى ، أولا على أيدى التجار العرب أنفسهم منذ وقت مبكّر ، ثم على أيد التجار الملاويين فى العصور الوسطى . ولكن هذا اللسان ظل ثانوياً جداً بحيث لا يمكن أن نتكلم إلا عن مدخل واحد للإسلام إلى الصين هو المحور البرى ، بينما - للمقارنة - تمتاز الهند نسبياً بمدخلين : براً فى الشمال وبحراً فى الجنوب .

(١) W. Gordon East, Geography Behind History, Lond., 1948, pp. 180 ff.

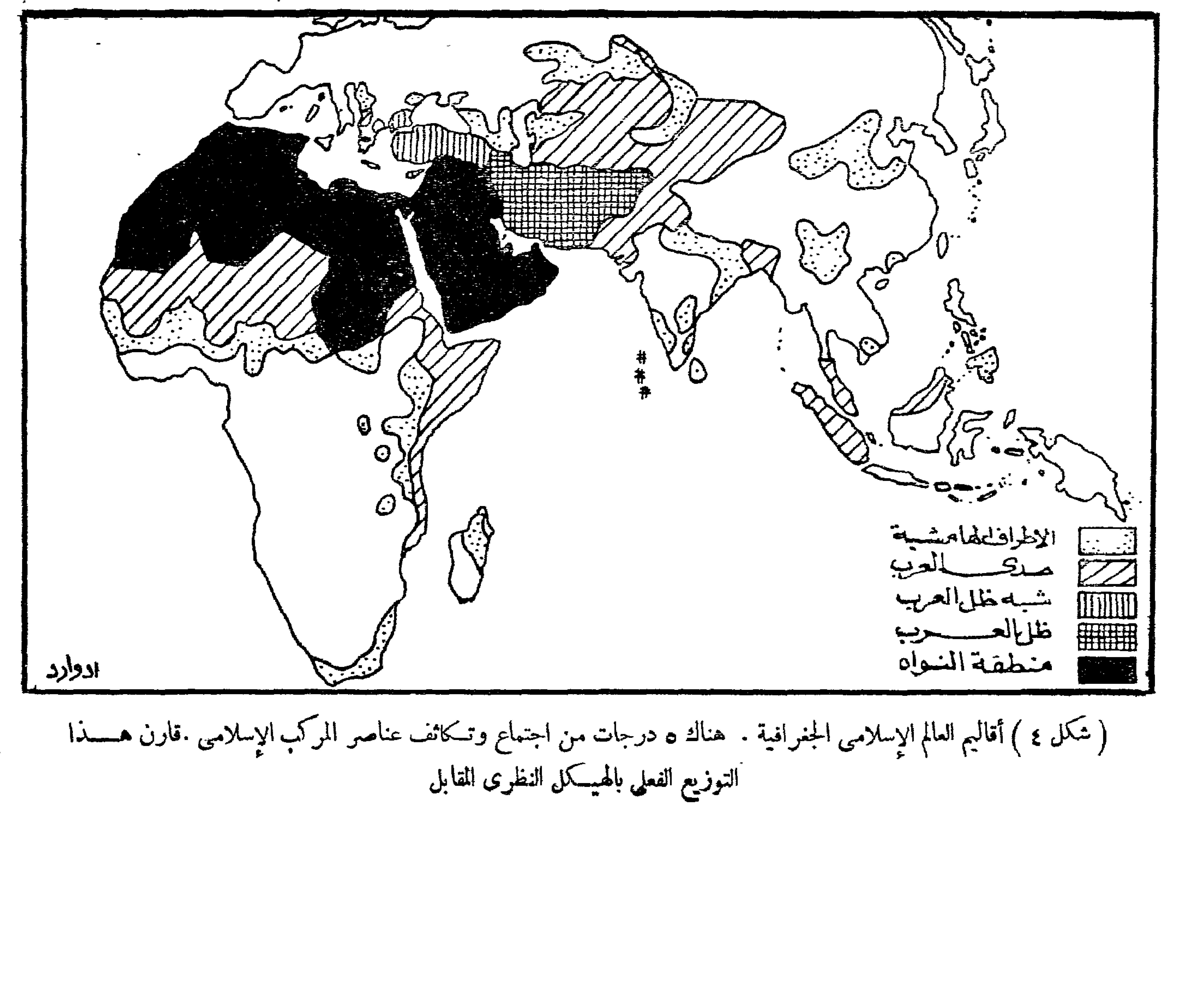
أسس تصنيف الانحدارات الحلقية

لننتقل الآن إلى الأبعاد والانحدارات الدائرية فى توزيع الإسلام ، كيما نحلل الأسس التى يمكن تبنيها فى التمييز بين حلقاته المختلفة التى تترى من قلبه حتى أطرافه . من هذه يمكن أن نحصر خمسة عناصر أساسية هى على الترتيب : عمر الإسلام ، كثافته ، نوعيته ، نسبة العرب ، نسبة العربية . وإذا كان العنصران الأخيران مشتقين أصلا من القلب التاريخى للعالم الإسلامى وهو العالم العربى ، فليس المقصود هنا قياس « معامل العروبة » ، كما قد نقول ، فى أنحاء العالم الإسلامى ، وأبعد منه يقيناً أن نفرض أو نفترض هيراركية وطباقية داخله . المقصود فقط قياس عنصر أو بعد يتباين جغرافياً ما بين أجزاء العالم الإسلامى بصورة تزيد ملامحها ومعالمها المحلية وضوحاً وتبلوراً .

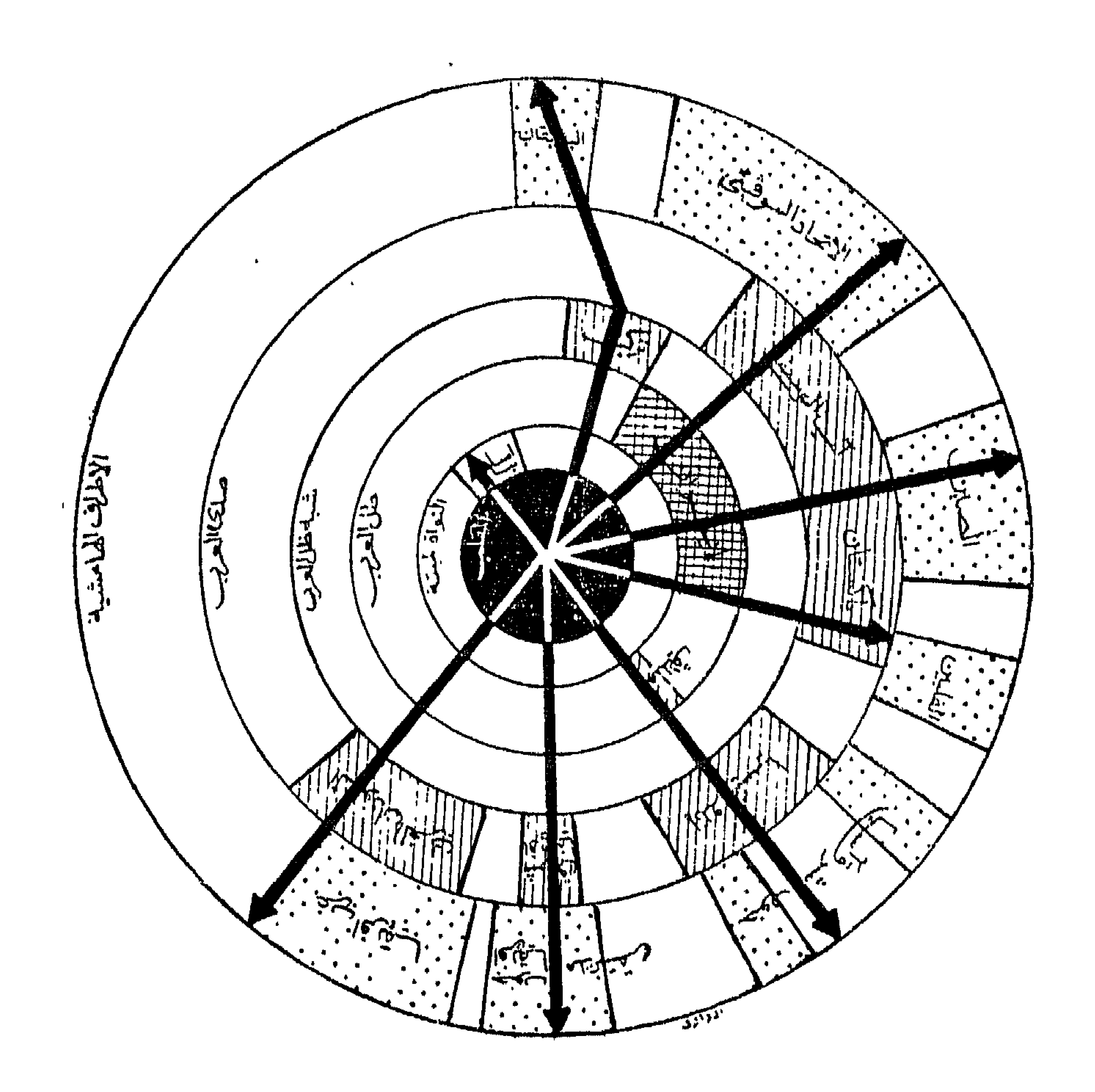
فأمر عمر الإسلام فنعنى به مدى القدم أو الحداثة ، أى تاريخ دخول أو وصول الإسلام فى كل منطقة . وبطبيعة الحال فإن القاعدة العامة هى الحداثة المطردة كلما بعدنا عن القلب واقتربنا من الأطراف ، بحيث يمكن أن نميّز زمنياً وبصورة عامة بين «الإسلام القديم» قرب القلب وبين « الإسلام الحديث » قرب الأطراف [١] . ولكن العلاقة بعد هذا لا يمكن أن تكون مطردة بصرامة وبهذه السهولة والآلية الصماء ، فهى علاقة معقدة تتحدد بتفاعل طرفين لا طرف واحد : القوة والمقاومة : قرب اندفاع الإسلام ، ومقاومة الظروف الطبيعية والملابسات التاريخية . ولسنا نستطيع لهذا أن نقول - مثلا - إن الإسلام كان يقطع كذا ميلا فى كل قرن . ولكن نظل القاعدة العامة سليمة فى جوهرها كما تدل التواريخ الفعلية لدخول أو انتشار الإسلام التى عرضنا لها فى دراسة محاور إشعاعه وتوسعه .

---

(١) Rondot, op. cit., t. II, p. 185.



(شكل ٤) أقاليم العالم الإسلامى الجغرافية . هناك ٥ درجات من اجتماع وتكاثف عناصر المركب الإسلامى .قارن هذا التوزيع الفعلى بالهيكل النظرى المقابل



(شكل ٥) - الهيكل النظرى التجريدى لمورفولوجية العالم الإسلامى . النظام حلقى مشع إلى قطاعات حلقية . قارن بخريطة التوزيع الفعلى المقابلة .

هناك بعد هذا من أسس التباين فى العالم الإسلامى كثافة الإسلام الحالية ، أى نسبة حدوثه إن أغلبية وإن أقلية . ويمكن فى هذا أن نقول - مع لوش - إن كثافة الإسلام أو قوته النسبية تقل بالتدريج ، ولكن ليس بصفة مطردة بصرامة دائماً بطبيعة الحال ، كلما بعدنا عن كعبة الإسلام ، إلى حد ما مثلما تفعل الكاثوليكية فى أوربا كلما بعدت عن روما [1] . وهكذا نجد أن الإسلام يتحول من أغلبيات مطلقة أو ساحقة حوالى القلب ، إلى أقليات كبيرة ثم إلى أقليات ضئيلة فى نويات متقطعة مغروسة فى وسط أغلبيات غير إسلامية وذلك على نهايات وأطراف العالم الإسلامى . وكثيراً ما تجنح هذه النويات إلى أن تأخذ طبيعة مدنية أكثر منها ريفية . وعلى العكس من هذا القلب ، فهو وإن كان لا يخلو من أقليات ضعيفة من الأديان الأخرى ، إلا أنها تبدو كجيوب صغيرة منعزلة متباعدة ، كما تميل بدورها غالباً إلى أن تستقطب فى المدن أكثر منها فى الريف العريض .

الأساس الثالث يمكن أن يكون نوعية الإسلام ، بمعنى درجة نقاوته وقوامته ، أو تخليطه وتحريفه ، كما يعنى هذا أيضاً اتجاه حركته إن توسعاً وانتشاراً ، جموداً وثباتاً، أو تراجعاً وتناقصاً . وهنا أيضاً نجد أن الحركة من القلب إلى الأطراف هى انحدار من الموجب إلى السالب بصفة عامة . فالأشكال النقية المتطورة المتماسكة من الإسلام أكمل ما تكون فى القلب وقربه ، بينما تزداد الابتعادات والتحريفات وتتداخله الشوائب كلما اقتربنا من الأطراف نظراً لبعدها المكانى وحداثة دخولها فى الدين زمنياً. كذلك فإن الأطراف وحدها هى التى تخبر نبضاً شديداً فى مصير الإسلام إما بالتوسع أو الانكماش .

أساس رابع يمكن أن نجده فى نسبة حدوث العرب حملة الدين وسدنته الأصلاء وسندته بالضرورة التاريخية . حقاً إن عملية نشر الإسلام لم تقتصر على العرب منذ البداية ، وإنما كانت أقرب كما رأينا إلى سباق التتابع ، فيها سلّم العرب المشعل بعد

(١) August Losch, Economics of Location (trans.), New Haven, 1954, p. 213.

مدى معين إلى عناصر أخرى قامت بدفعه إلى آماد أبعد ، إلى أن سلمته بدورها إلى من بعدها ، وهكذا . ومع ذلك فالملاحظ أن حملة الإسلام من العرب وصلوا فى مراحل مختلفة إلى أبعد آفاق الإسلام ، وإن يكن بنسب تقل باطراد كلما بعدنا عن القلب . من هنا نجد اليوم جاليات عربية مبثوثة كالجزر فى تضاعيف العناصر الإسلامية الأخرى ، أو على الأقل قد تركت طابعها واضحاً إذا كانت قد ذابت جنسياً وانصهرت فى خضمّها .

والعربية – اللغة أعنى – عنصر أكثر ارتباطاً وأشد التصاقاً بالإسلام من العرب أنفسهم . فكلغة القرآن ، تكاد العربية مع الإسلام أن تكوّن مجمّعاً لا انفصام له كجلمود الأسمنت conglom erate . فالعربية خارج العالم العربى ضرورة إسلامية إلى حد ما ، إن لم تظهر على نطاق جماهيرى فى لغة العبادة ، فعلى نطاق العلم الدينى تظهر ؛ وإن لم تنتشر مفرداتها فى اللغات الإسلامية الأخرى بدرجة أو بأخرى ، فقد تستأثر بشكل الكتابة . فهى إذن فى أغلب الحالات اللغة الدينية lhurgical بين جمهرة المسلمين ، وفى أضعف الحالات اللغة المشتركة lingua franca بين مثقفى الإسلام . ومن هنا نجد دولا إسلامية استعارت شكل الكتابة العربية أو ألفاظاً من اللغة العربية أو كليهما معاً . ويمكن لهذا كله أن يكون أساساً آخر فى تصنيف قطاعات وأقاليم العالم الإسلامى . وكما ينتظر ، فإن نسب حدوثه تقل من القلب إلى الأطراف باطراد يكاد يمكن أن نحدد انحداراته إحصائياً .

تلك إذن هى العناصر الأساسية المشتركة ، ولكن المتغيرة تغيراً منطقياً ، داخل العالم الإسلامى . فإذا نحن طبقنا هذه الأسس الخمسة كمركب يحدد لنا المعالم الدقيقة – التضاريس البشرية – للعالم الإسلامى ، لأمكننا أن نتعرف على حلقات ست متتابعة من الداخل إلى الخارج ، ولو أن أحداً منها باستثناء النواة يندر أن يكون دائرياً مكتملا ، بل يغلب أن يقتصر على قطاع أو أكثر هنا وهناك ، وذلك بحسب محاور انتشار وحدوث الإسلام نفسه .

إنها – هذه الحلقات أو القطاعات الحلقية – هى الأقاليم الطبيعية والبشرية والتاريخية فى العالم الإسلامى . ويمكن أن نحدد تسميتها بمدى اكتمال ذلك المركب من الأسس فيها ، أو بمعنى آخر غير مباشر بمدى الأثر العربى فيها . فمن « القلب أو منطقة النواة » ، وهى العالم العربى ، ننتقل تباعاً إلى « ظل العرب » إلى « شبه الظل » إلى « صدى العرب » وأخيراً إلى « أطراف الإسلام » القصوى . وفى الجزء التالى ندير مناقشتنا بالتفصيل حول خصائص كل من هذه الأقاليم أو الحلقات فى ضوء النظرية العامة التى قدمنا .

والفكرة الأساسية التى تقوم عليها هذه الأقاليم هى ببساطة أن نصيبها من اجتماع هذه الأسس الخمسة يقل بالتدريج كلما ابتعدنا عن القلب واقتربنا من الأطراف. ففى منطقة القلب تجتمع كلها على أعلى مستوياتها ، فنجد أطول تاريخ للإسلام وأعلى كثافة أو نوعية ، فضلا عن أعلى نسبة للعرب والعربية . وفى منطقة الظل نجد الإسلام كثيفاً متطوراً كذلك ، ولكن تاريخه أحدث قليلا ، كما يختفى العرب إلا كجاليات ضئيلة ، ولكن تكثر مؤثرات اللغة العربية سواء فى شكل الكتابة أو فى ألفاظ اللغة بنسبة كبيرة . وفى منطقة شبه الظل يزداد تاريخ دخول الإسلام حداثة ويختفى شكل الكتابة العربية . أما فى منطقة الصدى فإن تاريخ الإسلام أحدث وأحدث ، كما تختفى مؤثرات العربية كلية سواء من شكل أو ألفاظ . حتى إذا ما وصلنا إلى أطراف الإسلام وجدنا الإسلام نفسه أقلية عددية وحديث العهد للغاية ، كما يختفى الأثر العربى تماماً جنساً أو لغة .

الحلقة الأولى : منطقة القلب والنواة

لئن كان الإسلام قد انبثق من الحجاز كنواة نووية ، فإنه سرعان ما حول العالم العربى برمته إلى نواة له كبرى وإلى قلب نابض وبؤرة مشعة بكل ما فى ذلك من معنى ، ولم يلبث أن تحول العالم العربى إلى بلاد العرب الكبرى Greater Arabia ، بمثل ما تحولت جزيرة العرب نفسها إلى دار الإسلام بعامة وقبلة المسلمين جميعاً . وينبغى أن نميز هنا بين الفتح والإسلام والتعريب - على هذا الترتيب .

فأما الفتح فكان موجة مدية كاسحة نادرة المثال فى التاريخ جميعاً . ففى غضون القرن ٨ ، ولما يكن قد مضى قرن على مولد الإسلام ، كان عرب الجزيرة قد غطوا رقعة العالم العربى من محيطه إلى خليجه . ولا شك أن توسط موقع الجزيرة العربية من ناحية - والله أعلم حيث يضع رسالته - وطبيعة العرب الرعاة الرحل كعنصر حركى للغاية mobile شديد السيولة كرمال الصحراء نفسها من ناحية أخرى ، إلى جانب التجانس النسبى الكبير فى البيئة الطبيعية الصحراوية بين الموطن والمهجر مما كفل وحدة الوسط والوسيط ، الرمال والجمال ، لاشك أنها جميعاً مما يسفر هذا الزحف التاريخى والبطولى .

ورغم أن عملية التحول إلى الإسلام بدأت مع الفتح إلا أنها كانت نسبياً أثقل خطى بطبيعة الحال . على أنه فى غضون قرنين أو ثلاثة كان الإسلام قد أزاغ بالفعل وإلى مدى بعيد كل الغطاءات الدينية الأسبق التى ، على العكس منها خارج منطقة القلب ، كانت توحيدية فى معظمها ، وكادت العقائد غير السماوية تكون قد انقرضت منها من قبل طويلا . وإذا كانت هناك جيوب قد صمدت طويلا وتأخر إسلامها بعض الشىء ، فهى محلية ، قليلة ، ومتطرفة أساساً ، كجزيرة النوبة وواحة الكفرة ، ولكنها لم تلبث أن استسلمت أو أسلمت فى أخريات العصور الوسطى .

ومن هنا فالقاعدة العامة ، أولا ، هى أن الإسلام ها هنا إسلام قديم جداً بل أقدم ما فى العالم الإسلامى ، وهو أمر منطقى فى منطقة القلب والنواة . وثانياً ، فإن نسبة الإسلام هنا بعامة من أعلى ما فى العالم الإسلامى ، وإن كانت هناك أجزاء منه تقل فى ذلك عن أجزاء خارجه . واليوم لا تزيد الأقليات المتبقية عن جيوب مسيحية أساساً توجد فى المشرق فى قلاع الشام الجبلية أو فى صعيد مصر العميق ، وعن أسافين أشد ضآلة من اليهودية توجد فى المغرب العربى ، والكل لا يعدو معاً بضعة ملايين معدودة .

أما عن التعريب فقد كان بدوره وبطبيعته أبطأ وأثقل خطوة من عملية الإسلام، لأن تغيير القلب أسرع من تغيير اللسان ، ومن ثم تطلب قروناً عدة أخرى حتى صرعت العربية شتيت اللغات السابقة سامية وحامية وغير ذلك . ولكن هنا أيضاً تخلفت جيوب وجزر لغوية ، اعتصمت غالباً بمناطق العزلة والالتجاء فى الأطراف والهوامش القصية أو الجبال والجزر والواحات المتطوحة ، كالأكراد فى أقصى الشرق والبربر فى أقصى الغرب . وكما أن الإسلام لم يزل يكسب حتى يومنا هذا بعض عناصر الأقليات الدينية المختلفة ، فإن العربية أيضاً لا تزال مشتبكة فى صراع أخير وناجح ومحتوم المصير مع الأقليات اللغوية التى هى من قبل وبلا استثناء مزدوجة تجمع بين لسانها والعربية كمرحلة انتقالية نحو التعريب المطلق .

غير أن هذا لا يعطى سنداً أى سند للتخريجات السقيمة التى يطلقها البعض أحياناً من أن العربية بهذا ليست إلا لغة مشتركة lingua franca فى العالم العربى ، وإن كان من الصحيح أن أغلب العالم العربى هم لغوياً من المستعربين لا من العرب أصلا . بل من تلك الأقليات اللغوية من لعب دوراً خطيراً فى تاريخ الإسلام ، ففى المغرب كان البربر من أكبر حملة ونشرة الدين شمالا فى الأندلس وجنوباً فى الصحراء والسودان ، وفى الشرق كان للأكراد – تذكر صلاح الدين – شرف الدفاع عن الإسلام ضد المغول .

هذا ويمكن وبوجه عام أن نقول إن نسبة الإسلام فى العالم العربى أعلى من نسبة العروبة ، فبينما لا تزيد الأقليات الدينية عن ٣,٥ - ٤ ملايين تقريباً ، تصل الأقليات اللغوية إلى نحو ٨,٥ - ٩ ملايين (هذه الأرقام لا تشمل جنوب السودان). كذلك فإذا كانت الأقليات الدينية أبرز وجوداً ووزناً فى المشرق العربى من الأقليات اللغوية ، فإن العكس صحيح فى المغرب العربى حيث الإسلام عالمى تقريباً بينما تتحدد الأقليات فى الناحية اللغوية .

ويبقى بعد هذا الجانب الجنسى أو العرقى . الثابت علمياً أن أغلبية سكان العالم العربى هم من أصل أنثروبولوجى متشابه أو متقارب جداً ، على الأقل فى الأبعاد التاريخية السحيقة ، أى فى الأصول العليا الأولى ؛ وما الفروق التالية إلا من فعل التخصص الإقليمى والتوطن المحلى . فهم أبناء عمومة عريضة باعدت بينهم الجغرافيا والتاريخ بالتدريج ، إلى أن كان المد العربى الإسلامى .

هنا ، ومن قلب الجزيرة (وهى تاريخياً خزان بشرى مثالى) ، وبفعل الصحراء الطاردة (وهى كما قيل « ولودة ») ، تدفّق العرب وتواترت بطونهم وقبائلهم وجيوشهم طوال العصر الإسلامى بأعداد كبيرة وفعالة متلاحقة أكثر مما يتصور الكثيرون ، تدفقت لتنساح وتستقر فى كل أقطار المنطقة ، حتى انتهت إلى التزاوج والمصاهرة مع أبنائها الأصليين ، وأصبح التعريب إلى حد ما جنسياً مثلما كان لغوياً . وسواء قلنا تعريباً بالدم ، أو امتصاصاً للعرب فى دماء الأقطار المفتوحة ، فالنتيجة واحدة بحكم وحدة الأصل والجنس منذ البداية إنه زواج أقارب - بعيدين ربما - فى التحليل الأخير .

كذلك فقد امتاز العصر العربى الإسلامى فى المنطقة - بسيولته البشرية وحركته البدوية - بهجرات وموجات سكانية متبادلة ومتقاطعة ومتداخلة بين أقاليم المنطقة كلها مشرقها ومغربها ، مما جعل العالم العربى أشبه بدوار كبير للعرب ، ومما

ضاعف من عملية « التجنيس » العرقى التى أعطاها العرب الدفعة الأولى . والعملية كلها بذلك أشبه شىء بعملية « خض » أعادت تقليب سكان القلب جميعاً لتصهرهم من جديد فى بوتقة جنسية واحدة . وليس معنى هذا أن التعريب أو التخليط عرقياً عملية مطلقة تشمل كل خلايا الجسم الكبير ؛ معناه فقط أن من الصعب جداً الفصل الدقيق علمياً بين الطرفين . والصورة النهائية بعامة هى أن العالم العربى قد أصبح نسبياً من أكثر مناطق العالم الإسلام تجانساً فى العرق ، بمثل ما أنه أشدها تداخلا بين فكرتى العروبة والإسلام .

وتأسيساً على ذلك كله ، فإن نوعية الإسلام فى العالم العربى تصل إلى قمة نقاوتها وقوامتها ، فليس هناك تحريفات عقائدية أو رواسب من أى نوع . إن العالم العربى قلب وقلعة للإسلام معاً . وهو بحكم اللغة والتاريخ الوصى الشرعى والطبيعى على العقيدة وإليه آلت بالضرورة وظيفة الحفاظ عليها وخدمتها . العالم العربى بالضرورة « مدرسة » الإسلام الكبيرة ، « ومعهد دينى » ضخم للعالم الإسلامى جميعاً . ولا طبقية ولا عنصرية فى هذا ، فما نعنى بالقطع أن العرب سادة الإسلام ، وإنما نعنى فقط أنهم سدنته .

ومن هنا لم يكن مفر من أن تكتسب المنطقة منذ البداية وزناً خاصاً وهيبة تاريخية وربما سياسية ، وأن تمثل شخصية مشعة فى كل العالم الإسلامى . ولكن ذلك أيضاً مسئولية خطيرة تستدعى وعياً وعملا جاداً دائباً . ولعل أوضح مجال لهذه المسئولية الخطيرة أن يكون الحلقات الهامشية القصوى من العالم الإسلامى ، تلك التى لازال الإسلام فيها كماً وكيفاً فى حاجة إلى دفع وحضانة . ولعل السياسة الحالية التى يتبعها العالم العربى ، خاصة مصر الثورة ، فى نشاطات الدعوى التبشيرية فى آسيا وإفريقيا تؤشر بالفعل فى هذا الاتجاه .

ولكن العالم العربى من الناحية الأخرى ، لا يخلو ، ولم يكن بُدّ من ألا يخلو ، من فرق إسلامية عديدة تراكمت عبر العصر الإسلامى أو بالأحرى تجرثمت فى بداياته ، ولكنها تحجرت فى نهاياته . فكمهد العقيدة ، لم يكن مفر من أن تتحول المنطقة إلى خلية عارمة بالفكر الدينى وإلى معمل تجارب مذهبية ، غذتها أو غزتها السياسة ومصالح الحكم أو نعرات الشعوبية ، ولكن هذه العوامل الأخيرة لم تلبث أن فقدت سياقها التاريخى فى الوقت الذى تجمدت تلك حتى آلت إلينا إرثاً يثير المشاكل مثلما يثير التساؤل . غير أن النقطة الهامة ألا نبالغ – مع الاستعمار [١] ومستشرقيه – فى تضخيم هذه الفرق والمذاهب .

فإذا نحن وضعناها فى حجمها الطبيعى فلن تزيد عددياً عن أقلية ضئيلة للغاية قوامها بضعة ملايين (٥ – ٦ ، ربما ، من أكثر من مائة مليون) . وإذا ماردناها إلى مواطنها فلن تعدو أن تكون فاولا ميكروسكوبية ممزقة لجأت إلى مناطق العزلة الجبلية والأطراف الهامشية . كذاك نجد الشيعة الاسماعيلية والعلوية والمتاولة والدروز فى الشام ، والاثنا عشرية فى جنوب العراق ، والزيدية فى جبال اليمن . وكذلك نجد الإباضية بثوراً على هوامش العالم العربى فى عمان وفى جزر ساحل تونس وبعض واحات جنوب الجزائر . وفضلا عن ذلك كله ، فليس صحيحاً البتة ما يصوره الاستعمار من أن هذه الفرق هى « أقليات » دينية وأنها تمثل طائفية دينية بالمعنى السياسى المفهوم ، فهى جزء لا يتجزأ من المحيط الإسلامى ولاء ونشاطاً ، جهاداً واجتهاداً [٢] .

---

(١) W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950, pp.108 - 122.

(٢) Rondot, t. I., pp. 176-184 ; P. Birot & J. Dresch, La Mediterranee et le Moyen - Orient, t. II, Paris, 1956, pp. 300 - 303.

الحلقة الثانية : النواة الميتة

ويمكن أن تعد جزءاً من الحلقة الأولى ، غير أنها لم يعد لها وجود ، وربما دعوناها لهذا بالنواة الميتة . وبها نعنى امتداد العالم العربى فى العصور الوسطى عبر البحر المتوسط إلى إسبانيا وصقلية . فقد كان الجزء الأكبر من أيبريا ، باستثناء القلاع الجبلية فى الشمال ، أو بتحديد أدق ، أيبريا فى حدود خط زراعة الزيتون كما يقرر الإدريسى فى ملاحظة ثاقبة [1] ، جزءاً لا يتجزأ من العالم العربى ومركزاً من ألمع الإسلام والعروبة . كان المغرب الأوربى أو المغرب الثانى كما قالت العرب .

ورغم أن الأساس القاعدى فى السكان هنا كان إسبانياً ، إلا أن الهجرة أضافت عنصراً عربياً وبربرياً متعرباً كبير الوزن ، كما أن التعريب قطع شوطاً بعيداً بين الوطنيين أنفسهم ، وتحولت الأندلس إلى بوتقة حقيقية للاختلاط الجنسى حتى نشأت منهم فئات مختلطة متنوعة كالموريسكيين والمدجنين والمستعربين Mozarabe والمور Morerias وغيرهم ، بينما سجل الإسلام انتشاراً أوسع وأوسع . ويقدر البعض أن إسبانيا الإسلامية ضمت فى وقت ما نحواً من ٣٠ مليوناً ، المسلمون منهم نسبة ليست بالصغيرة [2] .

غير أن هذا الوجود الإسلامى - العربى زال كله فى النهاية بعد أن ظل يتراجع فى خط متأرجح على عدة مراحل تمثل توازنات الصراع وفترات المد والجزر بين الإسلام والمسيحية فى حرب الاسترداد Reconquista . وفى يوم وليلة كان « الخروج » العربى حيث طرد ملايين من المسلمين - عدا من قتل - عادوا إلى شمال إفريقيا (الأندلسى) ، وأصبحت الأندلس فردوس العرب المفقود .

---

(١) W. Gordon East, An Historical Geography of Europe, Lond. 1950, p. 202.

(٢) Philip Hitti, The Arabs, Lond., 1948.

غير أن الأثر الإسلامى العربى فى إسبانيا لا يمحى سواء فى اللاندسكيب الطبيعى والحضارى أو فى الدم أو على اللسان . فعدا الأثر الجنسى الذى يبدو بوضوح فى وجوه سكان الجنوب بل وتقاليدهم حتى اليوم ، وعدا الآلاف العربية من أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية الراهنة ، تضم الإسبانية إلى يومنا هذا نسبة ضخمة من الكلمات العربية ، يقدرها البعض بنحو ٦ آلاف كلمة ، أو ما يعادل ١٣,٧٪ من مجموع القاموس الإسبانى المعاصر . ويمكننا أن ندرك أهمية هذه التأثيرات العربية الإسلامية إذا تذكرنا أن الإسبانية قدر لها بعد ذلك أن تنتشر انتشاراً ضخماً فى أمريكا اللاتينية .

الحلقة الثالثة : ظل العرب

وننتقل بعد هذا إلى الحلقة الثالثة ، وهى أشد نطاقات الإسلام التصاقاً بالنواة العربية وأبعدها تداخلا فى تاريخها وتأثراً بها . وتمثل إيران وأفغانستان هذه الحلقة اليوم ، ولكنها كانت حتى الأمس القريب تتسع لتشمل تركيا الأناضولية ، التى تنزلق اليوم إلى الحلقة الرابعة . وقد دخل الإسلام هنا منذ وقت مبكر ، فى القرنين ٧ ، ٨ الميلادى ، حيث قضى على الديانات الوثنية المحلية القديمة من مجوسية وعبدة نار وزرادشتية ومانيكية ونسطورية ، وحيث انتظم السواد الأعظم من السكان بل وإلى درجة تزيد اليوم على ما تعرفه أغلب الدول العربية . غير أن الشعوبية ، التى لعبت هنا دوراً خطيراً ومزمناً بين الموالى على أساس النعرات التاريخية والحضارية وربما العنصرية السابقة ، قد خلقت منذ وقت مبكر نوعاً من الصراع ربما كان من ثمرته ظهور أو توطيد الاتجاهات الشيعية بقوة . وتعد إيران اليوم المركز الرئيسى للشيعة الاثنا عشرية فى العالم الإسلامى .

وكما قلنا : فإن التفاعل الحضارى بين النواة العربية وبين العالم الفارسى وصل إلى مدى بعيد جداً انعكس ، من بين ما انعكس ، على اللغة . فقد تقدم التعريب بخطوات مثيرة فى فارس حتى أوشكت العربية أن تقهر الفارسية الآرية ، وأن تحل محلها كما فعلت من قبل بالآرامية فى الهلال الخصيب والقبطية فى مصر والبربرية فى المغرب إلخ . وبها ساهم كثير من الفرس فى التراث الإسلامى العربى الكبير . ولو قد تم هذا لكانت إيران اليوم عربية وجزءاً من العالم العربى . غير أنه لم يقدر للعربية - بسبب فترات الضعف السياسى التى تلت - أن تصل إلى هذا المدى .

ولكن العربية ، بالمقابل ، تركت فى فارسية اليوم نحواً من ٦٠٪ من مفردات الدراسات الإسلامية ، وحوالى ٣٠٪ من مفردات اللغة العادية بعامة [١]. وفضلا عن هذا فإن الكتابة الفارسية استعارت الشكل العربى منذ البداية . ولا ترانا لهذا كله مغالين إذا قلنا إن إيران وأفغان بهذا بلاد « ثلث عربية » ، وتقع بهذا فى الإسلام على أقرب درجات النسب مع النواة العربية ، ويصح لنا إذن أن نصفها بجدارة « بظل العرب».

يضاف إلى هذا وذاك أيضاً الالتحام الجنسى ففى دولة إيران الحالية شريحة من العروبة الأصيلة لا تقل عن ثلاثة ملايين فى منطقة عربستان - لاحظ الاسم - والتى قلبتها البهلوية إلى خوزستان . كما أن الأجزاء الجبلية من شمال إيران والمتاخمة للعراق الأعلى كانت تعرف طوال العصور الوسطى « بالعراق العجمى » ، تأكيداً للطابع العربى الشديد الذى دمغها بالاحتكاك والتفاعل . وبالمقابل ، فقد جذبت عواصم الشيعية والعتبات المقدسة فى كربلاء والنجف بضع عشرات من الآلاف من الإيرانيين - ٥٢,٥ ألفاً فى ١٩٥٣ [٢] - مقيمة بصفة دائمة أو متجددة ، حتى

(١) أحمد شلبى ، « اللغة العربية فى آسيا وإفريقيا » ، المجلة ، يونيو ١٩٦٦ ، ص ٧٤ .
(٢) عزة النص ، أحوال السكان فى العالم العربى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٩ .

لتوصف هاتان المدينتان المقدستان بأنهما أسافين من الفرس فى جسم العراق [١] . بل لقد وصل الأثر الدموى العربى بعيداً حتى بلوخستان ، حيث يقال إن هناك اليوم ٣ ملايين عربى تتركز كالجزيرة زرعت جرثومتها منذ فجر الإسلام والدعوة .

وينبغى ألا ننسى أن نضيف إلى هذه الحلقة أرخبيل جزر الملديف المرجانية (ذيبة المهل عند ابن بطوطة) فى جنوب غرب الهند ، والتى تؤلف اليوم دولة سياسية مستقلة وعضواً فى الأمم المتحدة ، وإن لم تزد سكاناً عن المائة ألف . فهذه الجزر تقع من منحنى التعريب فى العالم الإسلامى على نفس النقطة التى تقع عليها إيران . فقد دخل الإسلام هنا منذ وقت مبكر جداً فى القرن ٨ على أيدى تجار الجنوب العربى ، الذين استقروا بها ثم ذابوا وانصهروا جنسياً ولغوياً بعد أن حولوا كل الأهالى بلا استثناء إلى الإسلام ، وبعد أن أعطوا للغة الوطنية شكل الكتابة العربية إلى جانب نسبة هامة من الألفاظ والمفردات .

الحلقة الرابعة : شبه ظل العرب

هذه طفرة حديثة فى مورفولوجية العالم الإسلامى ، محدودة الرقعة مثلما هى طارئة وشاذة . ولم تكن أصلا تعدو قطاعاً من الحلقة الثالثة السابقة . تركيا – وحدها – هى هذه الحلقة . ولقد تأخرت تركيا كثيراً عن إيران فى دخول الإسلام حتى القرن ١١ – ١٣ فى الواقع ، ولكنها أخذت الإسلام السنى بحماس ربما وصل أحياناً إلى حد التعصب ، ثم حكمت العرب وجزءاً كبيراً من الإسلام واحتكرت الخلافة لمدة طويلة ، بل إنها اليوم أعلى فى نسبة الإسلام من أى دولة عربية ، بما فى ذلك بعض دول الجزيرة العربية ربما .

---

(١) P. Deifontaines, Geographie et Religion, Paris, 1948, p. 311.

وقد أدخلها هذا كله فى تفاعل ، ولكن أيضاً فى صراع ، عميق جداً مع العروبة، خرجت منه الأخيرة مهزومة سياسياً منتصرة حضارياً وثقافياً . فبينما لم تكد التركية تؤثر فى العالم العربى فى أى مجال ، تغلغلت العربية فى اللغة التركية على نحو ما فعلت فى الفارسية ، وإلى نفس المدى تقريباً . فمن ناحية استعارت التركية ، التى لم تكن مكتوبة ، الشكل العربى فى الكتابة ، ومن ناحية منحت العربية التركية الثلث أو أكثر من مجموع قاموسها المعاصر كما يقدر الإخصائيون من الفيلولوجيين . كذلك تم تبادل المؤثرات الجنسية بدرجة أو بأخرى لاسيما على تخوم العروبة فى الشام . ففى تعداد ١٩٢٧ قدر عدد العرب فى تركيا بنحو ١٣٤ ألفاً ، وهذا بالطبع لا يشمل بقية العرب فى لواء الاسكندرونة الذى ضمته تركيا فيما بعد [١] .

وعلى هذا فإن تركيا – هى الأخرى – كادت أن تكون « ثلث عربية » فى حين ما . وإذا تذكرنا النفوذ السياسى للعثمانية فى أوربا البلقانية ، أمكننا أن ندرك مغزى ومدى هذا التعريب الجزئى . غير أن تركيا الحديثة – الكمالية – وقد اعترتها – كإيران – النزعة السوفيتية الحادة ، فضلا عن عقدة « الأوربة » ، هجرت الكتابة العربية فجأة إلى الشكل اللاتينى بمثل البساطة التى تبنتها بها من قبل (هل نقول رحل حضارة مثلما بدأوا رحل استبس ؟) . كذلك فقد عملت على « تطهير » اللغة من التراث العربى ، بل كادت بعد أن فصلت الدين عن الدولة فصلا صارماً أن تصل فى وقت ما إلى تجميد الإسلام ، إلى أن اكتفت فى النهاية « بتتريكه » . ومن هنا فقد نزلت تركيا فى درجة قرابتها فى العائلة الإسلامية خطوة إلى أسفل ، وبعد أن كانت قطاعاً من ظل العرب تراجعت إلى حلقة إن تكن قائمة بذاتها فإنها حلقة باهتة هى شبه الظل .

---

(١) النص ، المرجع السابق .

الحلقة الخامسة : صدى العرب

هنا يظل الإسلام الأغلبية المطلقة ، فقد يصل إلى نسبة أعلى مما فى النواة العربية ، ولكنه أيضاً قد يقل عن ذلك كثيراً . إلا أنه بوجه عام أحدث تاريخاً بدرجات متفاوتة ، ويمكن أن نعمم فنقول إنه متوسط العمر هنا . وأهم من هذا أن الأثر العربى من جنس أو لغة أو كتابة يصبح ضئيلا ورمزياً : إنه صدى بعيد على الأكثر . ومن الناحية الدينية يشتد التمسك بالإسلام ، ولكنه لا يخلو من شوائب دخيلة أو شكليات بالية ، إلى جانب أن الحلقة ككل مناطق الأطراف النائية تعد معقلا للأفكار العتيقة التى ربما عرفتها منطقة النواة فى حين ما ، ولكنها نبذتها منذ وقت طويل . كذلك قد يتعرض الإسلام هنا لأخطار خارجية معينة .

والصفة الحلقية والنطاقية هنا واضحة تماماً ، وإن بدأ التقطع الأرضى يظهر . فتبدأ الحلقة من بحر قزوين لتشمل وسط آسيا والتركستان ، وتستمر لتضم الباكستان بشطريها ، ثم تقفز المحيط لتنتظم الملايو وجزر إندونيسيا الرئيسية . وتعود الحلقة إلى الظهور فى إفريقيا على طول الساحل الشرقى ابتداء من إرتريا والصومال حتى تانزانيا . ثم بعد انفصال أرضى عريض ، تستمر فى السودان الغربى وجنوبى الصحراء الكبرى حتى الأطلسى .

ففى وسط آسيا استقر الإسلام نهائياً وعلى وجه الإطلاق منذ حوالى القرن ١٣. ووصوله هنا لم يتم على أيدى العرب بالدقة بقدر ما تم بواسطة إيران ، ولا أثر عربى هنا فى لغة أو كتابة . وهنا يتعرض الإسلام للاحتكاك الآن مع الشيوعية ، وهو من ثم لا يجد بيئة طبيعية بطبيعة الحال ، إن لم يلق ظروفاً تعمل على تفكيكه وتذويبه desislamisation كما يقال . وعدا هذا فإنه يتعرض لخطر التناقص النسبى ، وذلك عن طريق الهجرة الروسية إلى الجمهوريات السوفيتية مثل تاجيسكتان وأزبكستان

وتركمنستان وكازاكستان . وقد وصلت هذه الهجرة بالفعل إلى درجة تهدد أغلبية الإسلام العددية هنا . فكما رأينا فإن العناصر الروسية المهاجرة تتراوح اليوم ما بين ٢٠٪ ، ٦٠٪ من مجموع سكان هذه الجمهوريات [١] . ولهذا فالخريطة التقليدية لكثافة الإسلام التى كانت تصور الموقف على أنه سيادة مطلقة تتعدل حثيثاً تحت ناظرينا ، وإن يكن بطريقة سلمية هادئة . ولعل هذا القطاع من الحلقة هو وحده الذى ينفرد بهذه الظاهرة الهامشية الخطيرة .

أما فى الباكستان فالموقف مختلف كثيراً . فها هنا وصل الإسلام مبكراً ، واستقر منذ القرن ٩ - ١٠ تقريباً حتى القرن ١٣ . وهو يكاد يكون الدين المطلق فى الشطر الغربى ولكنه - وإن ظل الأغلبية السائدة - ينخفض كثيراً فى الشطر الشرقى. ولقد كان الوعى الدينى هنا دائماً على أشده ، بل ملتهباً فى بعض المراحل ، وذلك بحكم الأخطار الهندوكية المحدقة . ومن هنا كان القطاع شديد التطلع والتلهف إلى قلب العالم الإسلامى . وفى هذا المقام تجد العربية دوراً هاماً لتلعبه .

فمنذ عهد « المغول الأكبر » فى القرن ١٥ - ١٧ ، تكونت هنا اللغة الأردية من خليط غريب من الهندوستانية والهندية والفارسية والتركية إلى جانب العربية ، فكانت العربية أحد عناصر الأردية ، بل هى العنصر الأهم فيها الآن . وإنه لهذا السبب أساساً تبنتها دولة الباكستان الحديثة كلغة رسمية لها ، وعدا هذا فإن العربية ظلت دائماً وتظل لغة العلوم والمؤلفات الدينية . وفضلا عن هذا وذاك فللعرب وللمتكلمين بالعربية وجود مذكور . ففى عام ١٩٢٤ قدر أن بالهند - الجزء الباكستانى اليوم بالطبع - نحواً من ٣٠٠ ألف منهم [٢] ، لا ندرى كم يبلغون الآن .

---

(١) Rondot, t. I, pp. 297 ff. ; t. II, pp. 179 ff; J. P. Cole, Geography of Current Affairs, Pelican, 1963, p. 53.

(٢) Revue du Monde Musulman, t. 57, 1924, pp. 135 - 144.

والقطاع بعد هذا شديد التمسك بالتراث الإسلامى وخلية للنشاط الدينى بجمعياته ومدارسه وطرقه .. إلخ ، كما كان له الفضل - بحكم ارتباطاته الاستعمارية الغربية الطويلة - فى نشر التراث الإسلامى باللغات الأجنبية (مدرسة جامع ووكنج Woking فى بريطانيا مثلا) ، فى حين أن هذا الدور كان ألصق بالمستشرقين فى منطقة النواة العربية . غير أن هذا الحماس الدينى والشعور الإسلامى الفياض يجنح أحياناً إلى بعض أفكار لم تعد مقبولة فى منطقة النواة كفكرة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة التى لم تزل تعيش أو تعشش فى بعض أركان الباكستان . كذلك فإن هنا إحدى الحالات القليلة فى العالم الإسلامى المعاصر الذى سميت فيه الدولة رسمياً بالجمهورية الإسلامية - جمهورية الباكستان الإسلامية - ليصبح الدين أساس الدولة . غير أن الذى حدث أن الباكستان تخلت عن هذه التسمية أخيراً بعد تجربة شاقة .

أما فى الملايو وإندونيسيا فالإسلام يرجع إلى القرن ١٣ كنقطة ابتداء فعالة واستمر يطرد فى القرون الثلاثة التالية ، حتى أصبح اليوم الأغلبية السائدة ، واصلا إلى ٨٠٪ فى إندونيسيا ، وإلى نسبة مثلها وربما أكثر منها فى الملايو إلى أن هوت به الهجرة الأجنبية أخيراً - على نحو ما فى وسط آسيا السوفيتية - إلى ما لا يزيد عن النصف إلا قليلا . ومن الملاحظات الهامة أن الإسلام ، الذى أزاغ البوذية والبراهمية وغيرهما هنا ، لازال فى بعض الجهات الهامة يعانى من رواسب وأدران وثنية استحيائية animism ويحتاج إلى كثير من التعميق والترشيد .

ولقد جاء دور العرب هنا مباشراً بفضل البحر ، فإن تجار وبحارة الجنوب العربى، خاصة الحضارمة والعمانيين ، ولكن أيضاً بعض العناصر الفارسية ، هم حملة الإسلام إلى هنا ، حيث كانت ملقا « ملقى » لهم جميعاً - ومن هنا الاسم ، فهو عربى الأصل. ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع العلاقة بين الجنوب العربى والأرخبيل . وحتى الوقت الحالى توجد جالية عربية مقيمة بصفة دائمة فى إندونيسيا بلغت فى ١٩٣٠ نحو ٧١ ألفاً

تزيد اليوم لاشك كثيراً على المائة ألف [١] . ولايزال العرب يرسلون أبناءهم صغاراً إلى الوطن الأب لتعلم العربية ثم يعودون للوطن الثانى ، كما لازالوا يرسلون من أرباحهم إلى الأهل فى الوطن القديم ، وبعضهم يعود فى أخريات أيامه ليموت فيه[٢].

ولكن نفوذ العنصر العربى أبعد من مجرد ترك جالية غنية محترمة ، وإنما يمتد إلى اللغة . فمنذ البداية والعربية عنصر ثرى هام فى اللغة الملاوية التى هى لغة التجار والقبائل المشتركة فى كل الأرخبيل . وينعكس هذا الأثر حتى على بعض أسماء الأماكن ابتداء من « جوهور باهرو » (جوهرة البحر) « وكوتا بهارو » (كوت البحر) فى الملايو إلى « ميدان » فى سومطرة ... إلخ . كذلك كانت اللغات الهامة فى إندونيسيا مثل الجاوية والسونداوية تضم نسبة كبيرة من الألفاظ العربية . حتى إذا كان الاستقلال وقررت إندونيسيا البحث عن لغة رسمية موحدة ، دار الاختيار فى وقت ما بين الإنجليزية والصينية والعربية ، إلا أن الاختيار عاد فاستقر على الملاوية - التى تشمل عناصر عربية أصلا - معدلة ومطعمة بنحو ١٥٪ من مجموعها من الكلمات العربية تحت اسم اللغة الإندونيسية Bahasa Indonesia [٣] .

ونعبر المحيط الهندى لنلقى صدى العرب فى إفريقيا ينتشر فى قطاعين من هذه الحلقة . أولا على طول الساحل الشرقى ابتداء من جنوب إرتريا حتى تانزانيا . والإسلام هنا مبكرا نسبياً بحكم الموقع الجغرافى . وهو يصل إلى ٩٩٪ فى الصومالات ، ويقل عن ذلك - وإن ظل الأغلبية محلياً - فى بقية النطاق . والأثر العربى هنا مباشر ، فالعلاقات التاريخية - وما قبل التاريخية - بين الجنوب العربى «وساحل الزنج وساحل البنادر» قصة معروفة . وإذا كانت علاقة الملايو وإندونيسيا

---

(١) G. B. Cressey, Asia's Lands & Peoples, McGraw Hill, 1951, p. 527.

(٢) Royal Institute of International Affairs, The Middle East. A Political & Econ. Survey, O. U. P., 1958, p. 115.

(٣) G. A. Fisher, " Southeast Asia : Balkans of the Orient ? " Geography, Nov. 1962, p. 364; ، شلبى ، المكان السابق ، ص ٧٦ .

أقوى مع حضرموت واليمن ، فإن العلاقة هنا هى مع عمان بوجه خاص ، أى على التقاطع كما قد نقول ، ربما لأن العلاقة الأولى تحكمها حركة واتجاهات الرياح الموسمية صيفاً وشتاء ، بينما أن الثانية التى تتعارض مع هذه الرياح أكثر ارتباطاً بتتبع الساحل .

على أن المهم أن الأثر العربى يظل هو أبرز نتيجة وملمح فى كل القطاع الإفريقى . بل إن هذا ليمتد هنا إلى الجانب الجنسى المباشر . فالصوماليون أنثروبولوجيا حاميون فى الأصل داخلتهم دماء كثيرة من الجلا من الغرب ومن العرب من الشرق ، وهم كالدناكيل فى إرتريا يدعون أصلا عربياً أساساً [١]. وهذا عدا خميرة من العرب الخلص . ففى الصومال الفرنسى ، على سبيل المثال ، حين كان مجموع السكان يقدر بنحو ٦٣ ألفاً فى ١٩٥٤ ، كان منهم ٦ آلاف عربى [٢] ، ولاشك أن الرقمين ارتفعا اليوم . ومثل هذا يصدق على بقية الصومالات .

ثم أيضاً الأثر اللغوى . فاللغة الصومالية لا تخلو من تطعيم عربى يذكر ، فضلا عن أن العربية منتشرة انتشاراً بعيداً للغاية بين المثقفين والمتدينين الصوماليين. وليس يقل أهمية اتجاه دولة الصومال مجدداً إلى التفكير فى تبنى الشكل العربى - ضد اللاتينى - فى كتابة اللغة الصومالية التى لاتزال غير مكتوبة . بل إن الصومال تتطلع بشدة إلى النواة العربية وتهفو إليها معنوياً وترتبط بها مادياً ، حتى لقد طالبت بالانضمام إلى الجامعة العربية ! .. والواقع أن وجهة الصومال نحو الإسلامية والعروبة بشدة غير عادية هى - كوجهة الباكستان إزاء المحيط الهندوكى - نتيجة الضغوط السياسية والحيوية التى تتعرض لها كجزيرة ضئيلة الحجم والقوة بين أطماع إثيوبيا التوسعية التقليدية من ناحية ومشكلاتها على الحدود مع كينيا من ناحية أخرى .

(١) C. S. Coon, Races of Europe, N. Y., 1939, p. 447.

(٢) اعتمدنا فى الأرقام الإحصائية عن العرب فى كل وحدات شرق إفريقيا على طبعات مختلفة من Statesman's Year-Book.

وخارج الصومال يظل الأثر العربى قوياً فى ساحل كينيا وتانزانيا ، حيث يبدو أثر الدم العربى واضحاً فى سكان زنجبار والسواحل ، وحيث ظلت الدولة العربية التى أنشأها آل البوسعيد العمانيون فى زنجبار منذ القرن الماضى حتى السنوات الأخيرة فقط ، بل لقد حدث أن أصبحت هذه الدولة تحكم عمان من مقرها الإفريقى لمدة طويلة. ولازال العنصر العربى هنا يمثل أقلية هامة من آثار الهجرة المباشرة ، بل لعلها من أهم الأقليات العربية فى إفريقيا غير العربية . ولا أرقام حديثة لدينا ، ولكن الأرقام المتاحة - على قدمها - تؤكد أهميتهم التى لاشك تتزايد بالنمو الطبيعى .

ففى كينيا عد من العرب ٢٤ ألفاً فى تعداد ١٩٤٨ ؛ قد يبلغون اليوم الخمسين ألفاً . وفى تنجانيقا عام ١٩٥٧ ، عد من العرب ١٩,١٠٠ شخص . وإذا كان العرب لا يزيدون عن ١٥٠٠ نسمة فقط فى أوغندة ١٩٤٨ ، فقد سجلت جزيرة زنجبار - المركز الرئيسى للأثر العربى فى كل النطاق - ٤٥ ألف عربى من مجموع كلى قدره ٢٦٤ ألفا ، أى أقل قليلا من الخمس وذلك فى عام ١٩٤٨ أيضاً ، لعلهم اليوم يناهزون المائة ألف . فالمجموع الكلى فى ذلك التاريخ المتقدم هو حوالى المائة ألف. ومعنى هذا أن فى شرق إفريقيا الساحلية ابتداء من الصومال حتى تانزانيا ما قد يقارب اليوم نحو المائتى ألف من العرب ، وإن كان البعض يرتفع بالرقم فى وقت مبكر جداً هو ١٩٢٤ إلى ٥٠٠ ألف [(١)] (٤) .

وعدا هذا كله فإن الأثر العربى اللغوى هنا يشبه ما عرفت الملايو وإندونيسيا على نحو ما . فهنا لغة مشتركة من أهم لغات إفريقيا وأكثرها شيوعاً هى السواحيلية التى تتألف من خليط من اللغات الإفريقية والكلمات الأوربية ولكن أهم منها الكلمات العربية - لاحظ عربية الاسم نفسه . ولقد تبنت دولة تانزانيا السواحيلية كلغتها الرسمية مثلما فعلت إندونيسيا بالملاوية .

---

(١) Revue du Monde Musulman, op. cit.

القطاع الثانى من صدى العرب فى إفريقيا هو السودان الغربى من قلب الصحراء حتى حواف الغابة ، مع نطاق السفانا كعموده الفقرى . وتاريخ دخول أو استقرار الإسلام ، الذى أتى على أيدى التجار وشيوخ الطرق والمرابطين ، يتراوح هنا ما بين القرن ١١ - ١٢ الميلادى حتى القرن ١٤ - ١٥ ، بحسب القرب أو البعد أو الظروف التاريخية . وقد جاء سهم الإسلام هنا من النواة العربية ، أى من الشمال ، راسماً نصف دائرة عكس عقارب الساعة فى الغرب ونصف دائرة أخرى مع عقارب الساعة فى الشرق ، حتى أغلقت الدائرة فى الوسط . وكثيرة جداً هى الدول الإسلامية الوسيطة التى قامت وبادت أو تعاصرت وتعاقبت فى هذه المنطقة [١] .

ولا تقل نسبة الإسلام فى أجزاء القطاع عن ٨٠ - ٩٠٪ ، والتمسك به شديد، ولو أن هنا وهناك فيما يقال بعض رواسب محلية من الاستحيائية والمعتقدات البدائية القديمة . ويعود الوجود العربى ليثبت نفسه مرة أخرى . ورغم أن حملة الإسلام هنا كان أغلبهم البربر ، فإن الأثر العربى المباشر شارك بدور كبير . فالفولا ، الذين كانوا من أنشط المسلمين هنا سياسياً وأوسعهم انتشاراً ، يضمون نسبة هامة من الدم العربى . بل إن هناك جيوباً خالصة من العناصر العربية مبعثرة فى تضاعيف القطاع قل أن نعرف بها . ولا نقصد بذلك هجرة على أهميتها الشوام من سوريين ولبنانيين حديثاً إلى غرب إفريقيا منذ أواخر القرن الماضى ، والتى تقدر بنحو ٢٠ ألفاً مركزة فى عواصم السنغال ومالى وغينيا ، وإنما نقصد قبائل عربية ترجع إلى أيام الفتح والعصور الوسطى ، مثل أولاد سليمان وقبائل شوا فى تشاد ، والبرابيش فى مالى[٢]. بل إن بعض المصادر قدرت عدد العرب والمتكلمين بالعربية فى إفريقيا الاستوائية الفرنسية القديمة ١٩٢٤ بعدد ضخم هو ٦٠٠ ألف [٣] .

---

(١) Rondot, t. II, pp. 32 ff.

(٢) Nevil Barbour, Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1958.

(٣) Revue du Monde Musulman, etc.

الحلقة السادسة : الأطراف الهامشية

نحن هنا على نهايات العالم الإسلامى وتخوم دار الإسلام ، أرض الهوامش والأطراف القصوى ، وهى لا تزيد عن إطار خارجى باهت يغلف الحلقات السابقة . وهو لهذا أكثر تقطعاً وتبعثراً وتشتيتاً فى جزر وجيوب سديمية متفاوتة الاتساع والامتداد ولكنها قليلة الوزن والثقل . والاختلاف الجوهرى عن الحلقة السابقة هو أننا هنا نترك الأغلبية الإسلامية المطلقة إلى أقلية محدودة ، إن لم تكن ضئيلة للغاية أحياناً . والإسلام بعد هذا حديث العهد فى أغلب قطاعات الحلقة ، يرقى إلى ما بعد العصور الوسطى أحياناً وإلى أواخر العصور الحديثة نفسها أحياناً أخرى . وهو كذلك مرتبط بالهجرة الحديثة بأشكالها وملابساتها الخاصة بصورة أو بأخرى . ثم إنه هنا ، أكثر منه فى أى حلقة أخرى ، يتعرض لأخطر الضغوط والاحتمالات ، فى الوقت الذى تقل فيه قدرته على الصمود والحركة بحكم ضآلته من ناحية ونوعيته غير المتطورة بالضروة من ناحية أخرى . ولا أثر هنا بطبيعة الحال لنبض العرب وجوداً أو تأثيراً ، عنصراً أو لغة، فيما عدا حالات خاصة مفهومة .

قد يمكن أن نبدأ الحلقة بالعناصر الإسلامية المهاجرة العاملة فى فرنسا من المغرب الكبير خاصة الجزائر ، وكذلك العناصر العربية المنبثة فى يومنا هذا فى وسط أوربا ، غير أنه من الخير لنا أن نهملها جميعاً بحسبانها هجرات مؤقتة عابرة وليست إسلاماً مقيماً موضعياً حقيقياً . ومن ثم نبدأ بإسلام البلقان بفصوصه المتعددة ، ثم الشريط الشمالى الأقصى من الإسلام فى الاتحاد السوفيتى حيث يشتد تضاؤله وذوبانه فى كتلة السكان الروسية وتتضاعف آثار هجرتهم . وبعد انقطاعة شاسعة ، تلتئم فى الحلقة جزر الإسلام الصينى المتعددة والتى لا تؤلف حتى محلياً أغلبية فى أى نقطة من نقطها والتى تتعرض لمثل الظروف التى تتعرض لها مثيلاتها فى الاتحاد السوفيتى .

وكما قلنا فلا محل للأثر العربى هنا فى أى صورة ، ولكن يقال إن مسلمى الصين من شعب الخوى Khoi هم من أصل عربى ، ولكننا لا ندرى مدى هذا القول من الصحة [١] . ومهما يكن ، فأبرز حقيقة عن القطاع الشمالى بأسره من هذه الحلقة ، ابتداء من البلقان حتى الصين ، تعرضه حالياً للوجود الشيوعى بما يعنى ذلك بالضرورة من علاقات تفاعل أو غير ذلك . ثم تستمر دورتنا لتنتظم حلقة الأطراف جيوب الإسلام المنتشرة فى الهند الصينية ثم الفلبين « والجزر الخارجية » من إندونيسيا . ويعود للحلقة بعض وزنها فى جنوب الهند حيث تتعد جزر الأقليات المسلمة .

حتى إذا عبرنا المحيط دخلت مدغشقر – التى تستمد اسمها من تحريف تاريخى لمقديشيو – وأرخبيل جزر مضيق موزبيق كالقمر (كومورو) وألدابرا وروينيون إلخ .. فى هذا النطاق ، كما يدخله الظهير المباشر لشريط الساحل الشرقى حتى البحيرات العظمى إلى الداخل وحتى الرأس إلى الجنوب . وأخيراً ينضم إلى الحلقة نهايات الإسلام فى غرب إفريقيا على حواف الغابة وبين تضاعيفها مقتربة من الساحل فى نقط ونائية عنه فى أخرى . وأبرز ما يجمع كل هذه الجبة الجنوبية من الحلقة سواء فى آسيا أو فى إفريقيا تخلط الإسلام ببعض العناصر والعقائد البدائية القديمة بدرجة أو بأخرى ، ولو أنه ليس من الصحيح ما يثيره البعض من تساؤل عما إذا كان الإسلام فى بعض قطاعاته الجنوبية ليس إلا استحياء متأثراً بالإسلام أكثر منه إسلاماً تشوبه رواسب استحيائية ، إى ليس إلا قشرة ودرقة أكثر منه عموداً فقرياً وهكيلا عظمياً [٢] .

(١) مصطفى الأمير ، « الأقليات القومية فى الصين الشعبية » ، المحاضرات العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ٥٧ .

(٢) Rondot, t. I, p. 186.

هذا ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الحلقة الهامشية القصوى من الإسلام فى العالم القديم ، هالة كالزغب أشد تخلخلا وسديمية تؤلف الغلاف الشفاف الخارجى الأقصى أو الهوامش والأطراف الخارجية . هذه الحالة التى يمكن أن نعدها إما حلقة مستقلة أو حلقة تكميلية ، والتى يمكن أن نميزها عن الأطراف « الداخلية » السابقة بأنها الأطراف « الخارجية » ، هى الإسلام فى القارات الجديدة استراليا والأمريكتين التى تتحلق جغرافيا حول العالم القديم .

ولعل أهم حقيقة فى هذه الهالة أن الهجرة هى العامل الأول فى الوجود الإسلامى بها ، والإسلام هنا خلايا انشطارية انفصلت عن نوايا أم فى العالم القديم . وهى بهذا ظاهرة طارئة وحديثة العهد للغاية لا ترقى إلى أبعد من القرن الماضى ، بل إن جسمها الرئيسى لا يعدو القرن الحالى . وإذا كان المصدر الأساسى فى حالة الأمريكتين هو الشام فى الدرجة الأولى ، فإنه الهند (القطاع الباكستانى حالياً) فى حالة استراليا . ومن الطريف أن الإسلام دخل استراليا أول ما دخل كقوافل إبل مطلوبة بالضرورة لعبور الصحارى فى عصر ما قبل السكة الحديدية [1] ، عوداً على بدء الأيام الأولى فى تاريخه العام ! .

غير أن الإسلام هناك وفى الأمريكتين أصبح الآن مدنياً أساساً فى طابعه العام . وهو فى النهاية يرتبط فى توزيعه بتوزيع كثافة السكان العامة بصفة إجمالية . غير أن الحقيقة التى تتبقى هى الضآلة الشديدة فى حجم الإسلام ووزنه فى القارات الجديدة جميعاً ، فهو لا يزيد على عشرات قليلة من الآلاف فى استراليا ، أما فى الأمريكتين فإذا كان العرب بضع مئات من الآلاف فليس كل المهاجرين العرب مسلمين ، وإذا كان الإسلام قد أخذ ينتشر أخيراً ومحلياً خاصة بين بعض الزنوج – « المسلمين السود » كما يعرفون الآن فى الولايات المتحدة – فإن المجموع العام لم يزل محدوداً . وإذا كان

---

(١) شلبى ، السابق .

الإسلام فى حلقة الأطراف الداخلية السابقة يعيش فى فراغ أو شبه فراغ دينى بين الإلحادية فى قطاعاتها الشمالية والوثنية فى قطاعاتها الجنوبية ، فهو هنا يعيش فى وسط لا يتعرض فيه إلى ضغوط عقائدية أو رواسب بدائية بقدر ما يتعرض لخطر الذوبان أو الذوبول البطىء .

* * *

الفصل الثالث

خريطة الإسلام السياسية

مازال الدين رغم كل شيء بعداً من أبعاد السياسة وعنصراً فى مركب القومية ؛ قد لا يكون البعد المحورى أو العنصر الجوهر الآن بعد إذ تحركت بؤرة السياسة فى العصر الحديث بعيداً عن الدين . ولكن لا مفر للباحث السياسى منه ، ولا يكاد يخلو مرجع فى الجغرافيا السياسية أو العلوم السياسية من فصل عن العلاقة بين السياسة والدين . فلا معدى إذن عن الاعتراف به كقوة بارزة أو مستترة تظل موحية مؤثرة بدرجة أو بأخرى فى الحياة السياسية ، إذن لم يكن فى العالم ككل ففى العالم الإسلامى على وجه التخصيص . غير أن السؤال الذى يبحث الآن عن إجابة هو : ما الذى تبقى للدين فى السياسة أو فى السياسة من الدين ؟ إلى أى حد ، وما هو الحد الأمثل ؟

ولعل خير منهج علمى نقترب به من المشكلة هو أن نجرى مسحاً موضوعياً شاملا للعالم الإسلامى ، فى واقع حاضره ، من زاوية السياسة والحكم ، فنحدد الأثقال النسبية للإسلام كضاغط أو كضابط فى كيان الدولة ، ونتعرف على دوره فى الوجود السياسى المفعم فى هذا المحيط الكبير . متى وأين يكون الإسلام أغلبية أو أقلية سياسية ؟ كم دولة إسلامية فى العالم وكم دولة أقليات إسلامية ؟ ما مشكلات السياسة والأمة هنا وهناك ؟ فى علامة استفهام واحدة ، ما كثافة الإسلام السياسية ؟ عن هذه الأسئلة والاستفسارات وغيرها هذا الفصل .

فى عالم اليوم القديم أكثر من ٦٧ دولة يوجد فيها المسلمون بنسبة أو بأخرى قد تبدأ من ١٪ وتنتهى إلى أى شيء حتى ٩٩٪ ؛ وهذا يعادل أكثر من نصف دول العالم . من هذه الدول ٥ فى أوربا ، ٢٣ فى آسيا ، ٣٩ فى إفريقيا . كذلك لا تكاد تخلو دولة فى العالم الجديد من إسلام المهجر والمهجرين أو التحول والمتحولين ، وظل هذا دائماً رشاشاً متطايراً محدوداً . غير أنه لابد من تحليل وتصنيف تلك الحالات على

أساس الوزن النسبى للإسلام فيها ، وهنا نجد ثلاث طبقات : دولة إسلامية يمثل فيها الإسلام الأغلبية المطلقة ، ودول نصف إسلامية يتعادل فيها مع العقائد الأخرى ، ودول الأقليات الإسلامية . وفى كل حالة من هذه الحالات يكون للإسلام مشاكله ووضعياته السياسية المعينة .

الدول الإسلامية

فمن الدول الإسلامية ٢٩ دولة ، واحدة منها فى أوربا (ألبانيا) والبقية موزعة بالتساوى بين آسيا وإفريقيا . وهى فى مجموعها تفوز بالأغلبية العظمى من المسلمين (نحو ٤٠٠ مليون) . وفى هذه الدول قل أن يخلو الأمر من أقليات دينية، وأقل منه أن تكون هذه أقليات ضعيفة . فنادرة هى الدول الإسلامية التى يصل فيها الإسلام إلى نسبته فى الجزيرة العربية (٩٩,١٪) أو الصومال (٩٩٪) أو تركيا (٩٨,٩٪) . والأغلب أن تؤلف الأقليات ٥ - ١٠٪ من مجموع السكان كما فى بعض الدول العربية مثل مصر والعراق ، ولكنها قد تصل إلى ربع السكان كما فى سودان النيل وكما فى الباكستان الدولة الإسلامية النشأة ، أو قد تقترب من الثلث كما فى ألبانيا الدولة الإسلامية الوحيدة فى أوربا .

فى العالم العربى

والإسلام فى هذه المجموعة هو تلقائياً « الدين القومى » ، سواء نص على ذلك دستورياً كما فى مصر حيث الإسلام الدين الرسمى للدولة ، أو نص عليه جنباً إلى جنب مع ضمان حرية العقائد الأخرى كما فى العراق ، أو لم ينص بطريقة حاسمة قاطعة كما فى سوريا حيث اكتفى باعتبار الإسلام المصدر الرئيسى للتشريع [١] . على أن هذا

(١) Pierre Rondot, L'Islam et les Musulmas d'Aujoud'hui, Paris, 1958, t. I, p. 48

وذلك فى الأعم الأغلب لا يجعل من الدولة دولة دينية ، وذلك بحكم وجود الأقليات . فاعتبارات الوحدة الوطنية تفرض فى الحقيقة منح هذه الأقليات وزناً سياسياً أكبر مما يتناسب مع وزنها العددى . وقد ينعكس هذا أحياناص من ناحية الشكل على دستور الدولة .

ويضغط المستشرقون بإلحاح فى هذا الصدد على ما حدث على سبيل المثال فى الجمهورية العربية المتحدة أثناء الوحدة السورية المصرية حين جاء دستور الوحدة خالياً من النص على أن الإسلام دين الدولة الرسمى ، وهو ما كان يرد دائماً فى الدستور المصرى ، أو على أن يكون رئيس الدولة مسلماً ، وهو ما كان يرد دائماً فى الدستور السورى . وبالمثل فلقد أسقطت تونس الجمهورية النص على الإسلام كدين الدولة من دستورها . هذا ويلاحظ أن الاستعمار من جانبه لا يكف عن أن يصور أن النص على دين الدولة الرسمى إنما يعنى تحويل الأقليات الدينية إلى «مواطنين من الدرجة الثانية» ، ويشيع أن هذا ضد مبدأ المساواة الديموقراطية أمام القانون [١] . وهذا إدعاء - أو دعاية ؟ - يقصد به مباشرة استثارة الأقليات والصراع الطائفى وتمزيق الوحدة الوطنية .

وإذا كانت المشكلة الطائفية تبدو قديمة فى العالم العربى ، فإنها لم تنفصل فى أى مرحلة من مراحلها عن الاستعمار : هو الذى غذاها إن لم يكن خلقها ، وهو الذى اتخذ منها أداة سياسية يدعم بها وجوده . وهل ننسى ، بين قوسين ، أن الصليبية - حتى الصليبية - تذرعت بحماية الشيعة من السنيين (كذا) ، فضلا بطبيعة الحال عن زعمها حماية المسيحيين من اضطهاد السلاجقة فى الأراضى المقدسة ؟ [٢] على أن من الغريب ، باستثناء هذه الطلائع المبكرة ، أن الأقليات الدينية فى العالم العربى لم تكن مشكلة فى عصر الدين وسيطرته فى العصور الوسطى ، فإن التسامح والتعايش

(١) Rondot, t. II, 1960, pp. 160 - 167.

(٢) W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1960.

الدينى كان يكفل « للذميين » مواطنة كاملة حرة . وما بدأت المشكلة إلا على يد الاستعمار الدينى التركى والاستعمار السياسى الأوربى من بعده - الأول ولدهما بغبائه السياسى ، والثانى ألهبها بخداعه السياسى .

فمن المعروف والثابت أن الاستعمار التركى ، لكى يضرب عناصر الدولة المتنافرة بعضها ببعض فيضمن بقاءه ، وضع عامداً متعمداً « نظام الملة » الذى يحدد إطار الحكم على أساس الدين ، وخلق بذلك وعياً دينياً بالذات ، وبذر أول بذور الطائفية . وفضلا عن هذا فإنه هو الاستعمار التركى ، بتعصبه الضيق الأفق واضطهاده للشيعة ، الذى زرع الأشواك بين الفرق الإسلامية نفسها . وفيما بعد ، ومع تداعى الدولة ، زاد اضطهادها وتعصبها ، فزادت الطائفية عمقاً وخطراً . وفى ظل هذا الاضطهاد من ناحية والعجز من ناحية أخرى ، فتح الباب على مصراعيه لتدخل القوى الأوربية بحجة حماية الأقليات المسيحية فى الدولة فى الدولة العثمانية ، فأخذت كل واحدة منها تدعى حق رعاية الطائفة التى تناظرها ، وتفرض لها على الرجل المريض استقلالا ذاتياً جعل منها أحياناً دولة داخل الدولة وكاد يخرج بولائها إلى خارج الحدود . فكانت فرنسا - الابنة الكبرى للكنيسة - الحامية التقليدية للكاثوليك ، بينما دخلت الروسيا منذ القرن الثامن عشر كحامية للأرثوذكس .

ثم يأتى الاستعمار الأوربى بنفسه ليستغل الطائفية بلا مواربة وكسياسة مرسومة تلغم التركيب السياسى وتحول الأقليات الدينية - كما عبر البعض - إلى قنابل سياسية موقوتة .. فاحتضن الأقليات وعمل على خلق شعور بكيان خاص لها متورم منتفخ ، وفتح الباب للتبشير والإرساليات والمدارس الدينية ... إلخ ، كما سهل استيراد أقليات أخرى دينية غريبة ليضاعف من التخليط والتنافر الداخلى . من هذه الأقليات المجلوبة الأرمن والأشوريون النساطرة فى المشرق العربى ، « وطفيليات الاستعمار » من مالطيين وقبارصة ويونانيين ويهود ... إلخ ، هذا بطبيعة الحال عد الطفيليات الكبرى من جاليات دول الاستعمار نفسها . وكان طبيعياً ألا ترحب بهذا

الدول العربية لأن حشدها ، من زواية واحدة فقط ضمن زوايا أخرى ، كان من شأنه أن يخل بالميزان الدينى والقوى السياسية ويفاقم مشكلة الأقليات [١] .

فى إطار هذا المخطط الكبير ، وجدنا الاستعمار الفرنسى يحتضن المارونية مقابل الاستعمار البريطانى الذى احتضن الدروز . وفى سوريا حاولت فرنسا سياسة التمزيق الداخلى على أساس الأقليات والطوائف ، فنجدها تقسم سوريا أولاً إلى أربع « دول » : العلويين (شيعة) ، الدروز ، ودمشق ، وحلب ، هذا عدا الاسكندرونة وعدا لبنان الذى وسعوه من « لبنان الصغير » إلى « لبنان الكبير » بتخطيط روعى فيه حشد أكبر أقلية مسيحية ممكنة فى رقعة واحدة . وفى مصر ، حتى منذ الحملة الفرنسية ، حاول الاستعمار خلق مقابلة مكذوبة زائفة بين « فلاحين وأقباط » . وفى جنوب السوادن كان التبشير الاستعمارى سلاحاً خطيراً أريد به منذ البداية تعميق الهوة بين الجنوب والشمال وصولا فى النهاية إلى فصل سياسى بينهما كامل ومبيت . غير أن الوعى الوطنى كان دائماً يهزم الاستعمار ويفوت عليه أغراضه ، فما انصهرت الوحدة الوطنية بين الطوائف فى مصر مثلا إلا على نار الثورات الشعبية المتتالية ضد الاستعمار ، وظل الأقباط أبداً كتلة رصيفة رصينة من صميم جسم الأمة . وفى الشام فشلت كل مناوراته للبلقنة السياسية على الأساسى الطائفى فى سوريا .

ليس هذا فحسب كل ما حاول الاستعمار ؛ بل إنه حيث لم يجد طائفية متعددة الأديان حاول أن يخلق ويفتعل طائفية وهمية داخل الدين الواحد ! وفى هذا السبيل كان يلح بإصرار سافر على الفرق والفروق المذهبية داخل الإسلام ويروج لها على أنها ظاهرة طائفية ، وهو ادعاء مرفوض علمياً مثلما هو دينياً . ففى العراق كانت السياسة البريطانية التقليدية تدور محورياً حول تضخيم خلاف مصطنع بين سُنية الشمال وشيعية الجنوب حتى يستقطب الحياة اليومية فى صراع مذهبى مختلق ويستقطب الشعب بعيداً عن الوحدة الوطنية .

---

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ وما بعدها .

كذلك ما أكثر ما كان يكتب منظرو الاستعمار بأن النظام السياسى فى العراق ليس إلا قاعدة من الشيعة تحكمها وتتحكم فيها قمة من السُنة ! [(١)] بل إلى أبعد من هذا ذهب الاستعمار : فقد كانت خطته القائدة هى أن يعزل العراق عن الوطن العربى كلية على أساس ربطه بإيران التى ، بدورها ، ظل الاستعمار يردد خطأ ومغالطة أنها شيعية أولا وإسلامية ثانياً (كذا !) [(٢)] . وواضح أن هذه السياسة المزدوجة كانت تستهدف معاً وفى نفس الوقت تدمير الوحدة القومية للعرب ، وبنفس الدرجة تدمير الوحدة الدينية للمسلمين !

هذا فى العراق ، أما فى سوريا منذ الاستقلال فلم تخل انقلاباتها العسكرية المتواترة - وجميعها تقف أصابع الاستعمار الجديد من ورائه - لم تخل من لعبة السُنة والشيعة بصورة ما من الصور ، علنية أو مستترة . وحتى فى اليمن الإمامى ، كانت سياسة الرجعية الحاكمة هى مضاربة الزيود الشيعيين فى الهضبة بالشوافع السُنيين فى السهول ، وإذكاء الصراعات بينهم لتضمن هى طغيانها وحكمها المطلق الحفرى المتحجر. بل وحتى فى مراكش حيث لا طائفية ولا مذاهب ، عمد الاستعمار الفرنسى بين الأقلية اللغوية البربرية إلى إحلال القانون البربرى محل الشريعة الإسلامية وذلك فى صورة «الظهير» البربرى الشهير .

تلك جميعاً أدلة وأمثلة حاسمة على مدى ما وصل إليه الاستعمار الأجنبى فى تطويع ، أو بالأحرى تحريف ، الدين لأغراضه السياسية . ومن الواضح أن المصل المضاد كان دائماً وسيظل أبداً هو الوعى الوطنى والقومى . وإذا كان الاستعمار يحاول الآن - ومنذ انبثقت حركة القومية العربية المعاصرة - إشاعة المعارضة لها بين الأقليات الدينية (وغير الدينية فى هذا الصدد) ، والتلويح لها بخطر الإغراق والابتلاع فى الأغلبية ، ويعمل على تجييشها فى صفوف الانفصالية ، فإن لنا نحن أن نتذكر أن

(١) J. Beaujeu - Ganier, L'Economie du Moyen - Orient, Paris, 1954, p. 96.

(٢) روندو . جـ ٢ ص ١٢٦ .

تلك الأقليات بالذات ، وفى سوريا بالدقة ، كانت هى الرائدة الأولى منذ أوائل هذا القرن فى رفع لواء القومية العربية ودفع حركتها . الوعى بالوحدة القومية وحده إذن ، والبُعد القومى الذى يمكن أن يحتوى البُعد الدينى دون أن يتعارض معه أو يقصر دونه أو يضيق به ، ذلك هو الرد الصحيح على كل استغلال للدين للتخريب السياسى سواء من قبل الاستعمار الدخيل أو الرجعية الداخلية .

إندونيسيا ، تركيا ، الباكستان

لنترك العالم العربى الآن ، ولننتقل إلى العالم الأسيوى حيث ثلاثية من الدول الإسلامية تقف فى سلم تصاعدى من حيث دور الدين فى وجودها السياسى ، وكل واحدة منها تستحق وقفة خاصة . من أقصى الشرق ، فى دولة الجزر إندونيسيا ، نبدأ. فهنا حيث يبلغ السكان الآن كما رأينا نحو ١٢٠ مليوناً ، ويسجل الإسلام زهاء ٨٠٪ بمجموع قد يتعدى عدد المسلمين فى الباكستان مما قد يمنح الدولة مكان الصدارة فى العالم الإسلامى ، هنا لا مفر من أن يلعب الإسلام دوراً محسوساً فى السياسة . فمنذ الاستقلال كانت إندونيسيا تزخر بالتشكيلات والجماعات والأحزاب الإسلامية التى يصفها الغربيون عادة بالتطرف من مثل جمعية دار الإسلام وعلماء الإسلام والحزب الإسلامى .

ومنذ الاستقلال أيضاً فإن هذه العناصر كانت تضغط بقوة وباستمرار من أجل تحويل الدولة إلى ثيوقراطية جذرية . ولكن القيادة السياسية وقتئذ – سوكارنو – ظلت تؤكد أن تغليب الإيديولوجية الإسلامية المطلقة على التوجيه السياسى أدى إلى التفكك الوطنى منه إلى التماسك والوحدة الوطنية ، واكتفت بأن تضمنها الإيديولوجية

المركبة التى اتخذتها شعاراً لها وبوصلة وهى خماسية البانتشاسيلا المشهورة Pantjasila [١] . وقد كثف سوكارنو على المستوى التطبيقى فيما يبدو هذه الخماسية إلى ثلاثيته الجديدة فيما بعد وهى الناساكوم : كجبهة موحدة تجمع بين القومية والإسلام والشيوعية رغم ما بين أطرافها من تناقضات جوهرية متبادلة .

ودور الجماعات الإسلامية فى الانقلابات الأخيرة والغليان السياسى الذى عاشته إندونيسيا منذ بضع سنين ، إنما هو مسألة أحداث جارية ووقائع يومية لا تحتاج إلى دليل ، وبه كانت تأخذ موقفاً مستقلا فيما يبدو عن كل من الشيوعية والعسكرية . وليس من السهل دائماً أن نحدد الموقع السياسى للإسلام كقوة فى كيان إندونيسيا ، ولكنه بصفة عامة مثل أساساً ثقلا ومكافئاً للقوى العلمانية والإلحادية على حد سواء .

من إندونيسيا يمكن أن نتتبع وضع الإسلام السياسى فى الدولة صعداً إلى أقصى درجات تطرفه فى حالتين بعينهما هما تركيا والباكستان ، فهما بحق طرفا نقيض . فالأولى تخلت رسمياً عن الإسلام كدين الدولة بعد أن كانت دولة دينية أصلا بل مركز « الخلافة » الإسلامية بذاتها ؛ والثانية لم تقم أصلا إلا على أساس دينى بحت ، فكانت الدولة الدينية نشأة وإلى حين ما دستوراً .

فأما عن تركيا ، فالحقيقة أنها ما ظهرت على مسرح السياسة العالمية منذ فجر العثمانية إلا على دعوة الإسلام ، وإلا بعد أن قفزت على خلافة الإسلام قفزاً وربما اغتصاباً . وهى لم تجد مبرر وجودها بعد ذلك فى مراحل ضعفها إلا فى دعوى الإسلام والدفاع عنه ، بل وصلت فى أخريات أيامها إلى أن تبتز الدين لحساب السياسة وتستغل الإسلام - فى صورة الجامعة الإسلامية - لتضمن بقاءها السياسى ، بل عمدت أحياناً فى النهاية إلى أن توهم الغرب - الذى كان أحياناً يتصور أن الخلافة هى

---

(١) المرجع السابق . ص ١٦ - ٢٣ .

بابوية الإسلامية - بأن الباب العالى هو فى حقيقته البابا العالى وذلك حتى تكتسب هيبة دينية تدفع عنها أخطاره العسكرية .

غير أن تركيا انقلبت بعنف وعصبية من النقيض إلى النقيض حين وجدت أن الدين لم يعد سلاحاً سياسياً مؤثراً فى يدها أو يحقق لها وجودها الامبراطورى الزائل . فكانت الكمالية كما يقدر البعض ثورة على الدين - الدين السياسى على الأقل - بقدر ما كانت ثورة من أجل الوطن . ذلك أن الدولة الجديدة انسلخت رسمياً عن الدين مثلما فصلت المدرسة عن المسجد والقانون عن الشريعة ، وأصبحت دولة علمانية ، الإسلام فيها دين شخصى أو خصوصى ، بل إن هذا حاولت الكمالية « تتريكه » هو الآخر فى الدولة الوطنية الجديدة .

على أن هذا جميعاً لم ينجح فيما يبدو فى أن يزعزع الإسلام كعقيدة ، خاصة فى الريف ، وهناك فى السنوات الأخيرة شواهد حتى على نوع من العودة التدريجية الخفيفة إليه [1] . مع ذلك فإن دور الإسلام فى توجيه السياسة الخارجية لتركيا الحديثة قد تضاءل واهتز بحيث وصلت هذه فى يوم ما إلى حد مجافاة إن لم يكن معاداة بعض الدول العربية ، وفى نفس الوقت إلى حد الاعتراف بدولة الصهيونية فى إسرائيل . وإذا كان من أسف أن هذا الاعتراف مازال قائماً للآن ، فإن من حسن الحظ أن تركيا قد بدأت خطاً سياسياً جديداً تجاه الصراع العربى - الإسرائيلى ، اقتربت به من العرب خطوات بقدر ما ابتعدت عن العدو الذى قلصت معه علاقاتها التجارية بدرجة محسوسة .

أما الباكستان فإنها إذا كانت - فى معنى - تذكر بتركيا إذ ظهرت مثلها بعملية طرح ، بالانشطار عن وحدة سياسية أكبر كانت قائمة ، فهذا تشابه ثانوى ، أهم منه هذا التناقض الجذرى الذى يتلخص فى أن الواحدة تقلصت وتحولت من دولة دينية

(١) المرجع السابق . ص ١٧٥ - ١٧٨ .

إلى دولة علمانية والأخرى انسلخت من وحدة سياسية مدنية إلى وحدة سياسية قوامها وأساسها الدين . فالباكستان - التى يجمع اسمها بين رموز المقاطعات الإسلامية فى الهند القديمة ، والذى يعنى أرض الأطهار - هى التجسيد السياسى لفكرة وفلسفة إقبال الدينية ودعوته إلى كيان سياسى مستقل لمسلمى الهند رداً على الأخطار الخطيرة التى يتعرضون لها كأقلية فى محيط هندوكى مخالف فى الجنس والعرق إلى حد ما ، متباين فى اللغة والتاريخ إلى حد آخر ، ومتنافر فى العقيدة والثقافة إلى أقصى حد (« هم يعبدون البقرة ونحن نذبحها ! ») .

من هنا جاء خلق (أو انفصال ، كيف نحدد ؟) الباكستان ملحمة دموية مؤسفة ، ولم تطف إلى كيانها إلا على بحر من الدماء ، ولم تنتزع استقلالها إلا فى وجه مقاومة الاستعمار الغادر والأغلبية المقيمة . ولقد صحبت عملية الولادة الجراحية هذه انتقالات سكانية ضخمة من الهجرة المزدوجة انتظمت ١٧ مليوناً ما بين الدولتين الجديدتين دون أن تحقق - فى النهاية - تجانساً معقولا بلا أقليات لأى من الجانبين . فلازال فى الباكستان أكثر من ٢٥ مليوناً من غير المسلمين يناهزون خمس مجموع السكان ، بينما أن بالهند نحو ٥٥ - ٦٠ مليوناً من المسلمين إن لم يزيدوا على عشر سكانها فهم يعادولن نصف مسلمى الباكستان تقريباً .

كل شىء إذن يشى بالصبغة الدينية للباكستان أصولا ونشأة وكياناً . ولذا كان من الطبيعى أن تتسمى منذ البداية باسم جمهورية الباكستان « الإسلامية » ، وكان أول أهدافها الوطنية تطبيق الإسلام فى كل مجالات الدولة والحياة الرسمية واليومية للأمة ، كما كانت تزخر بقوى وجماعات الضغط الدينية ، بعضها عنيف متلاطم ، يعمق الإيديولوجية الإسلامية وأحياناً يجمدها . بل أبعد من هذا كله كانت الباكستان تتطلع فى النهاية إلى هدف ليس أقل من خلق الدولة الإسلامية العالمية التى تطوى الإسلام العالمى طياً (« لقد أتت باكستان ، ويجب أن تأتى إسلامستان » !) .

ومع ذلك فقد انتهت المحاولة بعد تجارب عديدة شاقة إلى النكوص وتخلت الدولة أخيراً عن صفة « الإسلامية » فى اسمها ، ولو أنها تظل تحتفظ بالنص على أن يكون دستور الدولة من « وحى إسلامى » [1] .

ولعل من المفيد هنا أن نلاحظ الفارق السياسى بين إسلام الهند وإسلام الصين . فالمسلمون في الصين ليسوا تماماً مختلفين جنسياً فى جملتهم كأقلية عن كتلة الشعوب الصينية العريضة ، ثم إنهم بوجه عام لم يكونوا انفصاليين فى معظم مراحل تاريخهم بل لذلك السبب ، وربما أيضاً لقلتهم على الإطلاق والنسبة . أما فى الهند فالسواد الأعظم من المسلمين ينحدر من أصول هندو آرية لا يشترك معهم فيها من الهندوس إلا قطاع صغير . وهم كأقلية ضخمة الحجم ليست ضئيلة النسبة كانوا يشعرون دائماً بذاتية خاصة ويحتضنون ميولا واتجاهات انفصالية ، بل لقد حققوا لأنفسهم بالفعل استقلالهم السياسى منذ بابر وأكبر حين أسسوا فى القرن السادس عشر دولة المغول الأكبر فى شمال الهند ، وسيطروا على جزء كبير من جنوبها إلى أن قضى عليها الاستعمار البريطانى . وفى هذا المعنى قد يجوز أن تعد دولة الباكستان إحياء أو نظيراً فى شكل عصرى جديد لدولة المغول الأكبر ، وربما صح أن نقول إن الخيط الذى ألقاه بابر وأكبر قد التقطه فى النهاية إقبال وجناح .

غير أن نقطة الضعف الكبرى فى الدولة الجديدة هى بلا شك انشطارها - نتيجة أو ضحية للصدفة التاريخية فى التوزيع الجغرافى للإسلام - إلى شطرين يفصل بينهما فاصل أرضى عمقه ١٠٠٠ ميل كاملة من التراب الهندى ، ولا بديل عنه طريقاً للاتصال سوى طريق البحر حول سيلون - قل كما لو تركت طريق السويس إلى طريق الرأس .. والباكستان الشرقية بالذات ، فضلا عن هذا ، تكاد تكون إسفيناً فى جسم الهند أكثر منها جيباً على ضلوعها . والباكستان بهذا هى الدولة الوحيدة فى العالم

---

(١) روندو . جـ ١ ص ٢٥٦ - ٢٦٠ ، جـ ٢ ص ١٦٧ .

الإسلامى ، بل فى العالم كله باستثناء دول الأرخبيلات الجزرية والولايات المتحدة ، التى تتألف من جزيرتين أرضيتين منفصلتين تماماً . والدولة الإسلامية هنا تظل تحت رحمة الهند ، ليس فقط بالانحدار الجيوبولتيكى الرهيب (٥ : ١ ، أو ٥٥٠ مليوناً : ١٣٥ مليوناً) بل وبالتركيب السياسى الممزق أيضاً .

وفضلا عن هذا فإن لذلك الانشطار الغائر نتائجه العميقة على تماسك ووحدة الدولة ، فهو يباعد ما بين الشطرين ويجمد الفروق وخلق الحساسيات والموازنات بينهما ، لا سيما أنهما مختلفان عن بعضهما البعض فى كل شىء تقريباً ما عدا الدين . فالباكستان الشرقية ، بعكس الغربية ، تعانى من شدة اكتظاظ السكان ومن إفراط السكان ، ومستوى المعيشة بها أشد انخفاضاً . والواقع أن الباكستان الشرقية أقرب موقعاً وبيئة وحضارة إلى الشرق الأقصى ، فى حين تصنف الباكستان الغربية أحياناً فى الشرق الأوسط الذى تقترب كثيراً من مناخه الحضارى والثقافى العام . وإنه لمن حسن حظ الباكستان حقاً تقارب شطريها نسبياً فى الأصل الجنسى - وإلا لكانت الهوة أعمق [١] . ومع ذلك فإن الباكستانيين الغربيين يشيرون إلى الشرقيين عادة باسم «البنغاليين» ، والواقع أن هؤلاء الأخيرين يبدون بعضاً من التشابه الجنسى مع عناصر الهنود السائدة .

لكل هذه الأسباب كانت العلاقة الحرجة بين جناحى الدولة أشبه سياسياً بعملية «شد الحبل» . فإذا كانت الباكستان الغربية هى منشأ الدولة ومركز الحكم بفضل سيادة الإسلام عليها سيادة شبه مطلقة ، فإن الباكستان الشرقية إن تكن أقل فى نسبة وعدد المسلمين فهى ترى نفسها تتفوق اليوم سكاناً فى مجموعها ، كما تدرك أنها اقتصادياً الأكثر إنتاجاً ومساهمة فى كيان وميزانية الدولة ، ولكنها مع ذلك تشعر أنها تعامل «كالأقارب الفقراء» فى عائلة الدولة .

---

(١) J. P. Cole, Geography of World Affairs, Pelican, 1963, p. 186.

وفى النتيجة ، فلقد ظهرت فى الفترة الأخيرة بعض اتجاهات تدعو إلى « تفدير الدولة » federalisation ، أى تحويلها إلى كيان فيدرالى ، وأخطر منها اتجاهات تدعو إلى الانفصال السياسى التام ، وهو أمر خطير لأنه يلقى ظلالا ويثير تساؤلات على صميم كيان الدولة باعتبارها دولة دينية النشأة . وهذه الاتجاهات ، التى يمكن أن تخل بالتوازن الحرج الراهن بين الباكستان والهند ، لا تقلق الأولى فحسب بل فيما يبدو تقلق الثانية معها للغرابة والدهشة ؛ ذلك أن مثلها لو تحقق يمكن أن يفتح الباكستان الشرقية خاصة للنفوذ الصينى الضخم مما يمكن أن يخل بدوره بالتوازن الأشد حرجاً بين الصين والهند .

لكن المشكلة العاجلة والماثلة التى تواجه الباكستان وتوتر كل حياتها الداخلية بل وتحكم كل سياستها وتوجيهاتها الخارجية إنما هى مشكلة كشمير (وجامّو) . وهى ابتداء مشكلة دينية صرف ، تدور حول رغبة الباكستان وتصميمها على ضم عدة ملايين – نحو سبعة – من المسلمين أخطأهم التقسيم بصدفة قانونية . هذا فضلا عن أن كشمير تضم المنابع العليا ، أى المفاتيح الهيدرولوجية ، لكل مشاريع الرى الحيوية فى الباكستان الغربية ، وهى دولة رى فى جفاف ، كما تظم مفاتيحها الاستراتيجية التى يمكن أن تهددها عسكرياً .

وتبدأ المشكلة مع قرار تقسيم الهند ، فإن نظام الاستقلال الذى وضعه الاستعمار ترك لحكام الولايات حق الاختيار بين الانضمام إلى الهند أو إلى الباكستان، مما أدّى بكشمير المسلمة التى يحكمها هندوكى (عكس ما عرفت حيدر أباد فى الجنوب) إلى أن تؤول إلى الهند . فكشمير هندية قانوناً وشكلا ، ولكن باكستان تراها باكستانية حقيقة وموضوعاً ، وهى تطالب بإصرار بضمها . أما رغبة كشمير نفسها – الشعب أعنى – فواضحة كل الوضوح : مع باكستان الأم . فكشمير فى تقدير الباكستان أرض سليبة ، وهى بالنسبة إلى الهند أرض منشقة terra irredenta. ومن ثمّ فقد تعددت الاضطرابات والثورات والاضطهادات داخل كشمير

كما تعددت الصدامات والصراعات بين الدولتين ، حتى كانت الحرب غير المعلنة الأخير ١٩٦٥ . ولا زالت المشكلة بركاناً متفجراً بالقوة وإن بدا خامداً من حين لآخر .

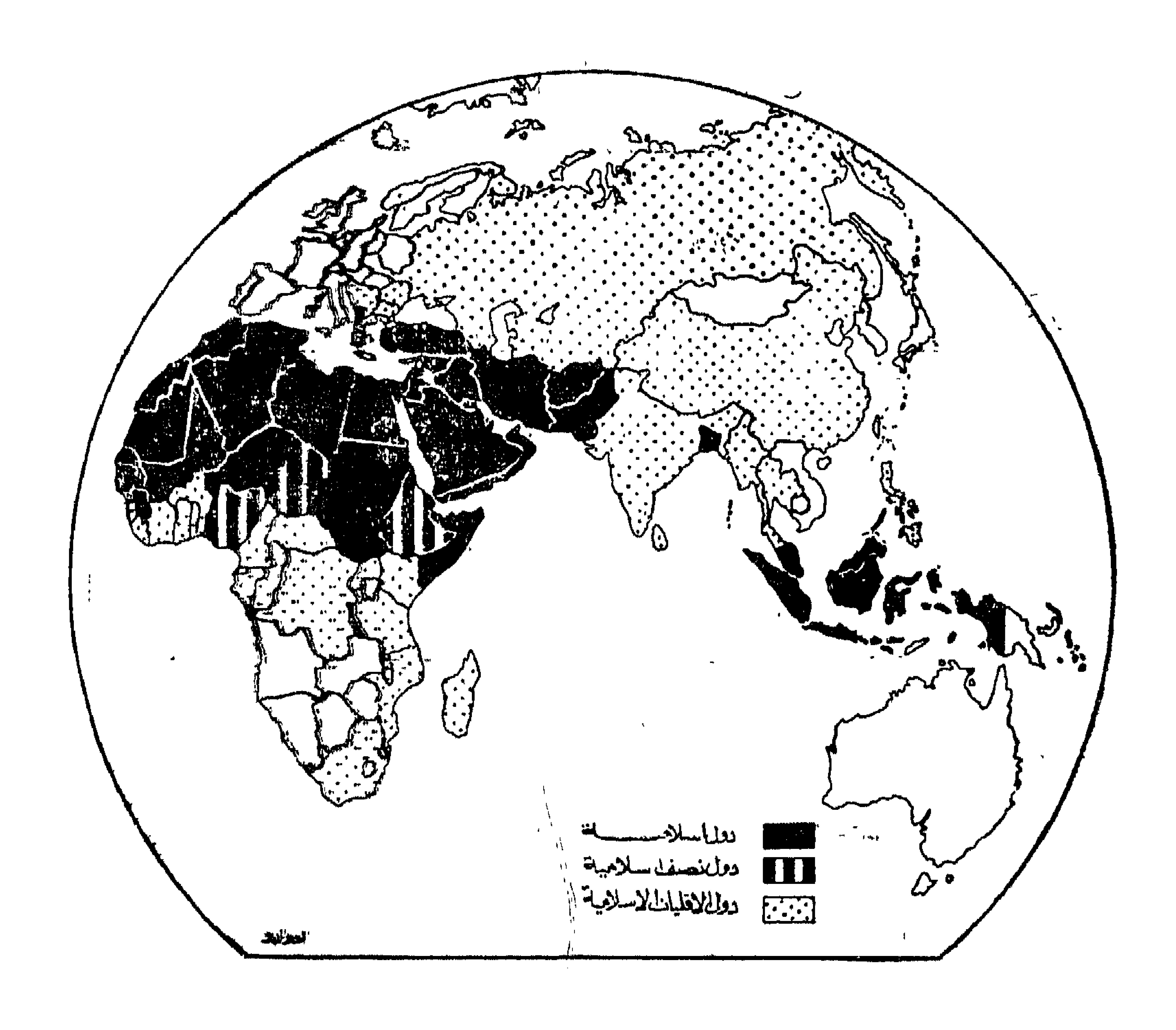
وليس يعنينا ها هنا أن نتخذ موقفاً ، حتى وإن يكن على أساس العلم ، ولكنا نشير باقتضاب إلى رأى جغرافى بريطانى يقول فيه عن كشمير « إن سكانها مسلمون بصفة غالبة ، ولهذا السبب ينبغى أن تنتمى إلى الباكستان » [١] . والواقع أن مشكلة كشمير لا تهدد السلام العالمى فحسب ، ولكنها الآن تحكم إلى حد كبير السياسة الخارجية لكل من الدولتين المتنازعتين . فهى أساساً التى جذبت الباكستان بدرجة أو بأخرى من الفلك المطلق للمعسكر الغربى لتتقارب من الصين الشعبية العدو الأول حالياً لكل من الهند وذلك المعسكر ، وفى نفس الوقت بدأت الهند فيما يبدو للبعض تتحرك من الفلك المطلق لعدم الانحياز لتتقارب بقدر ما مع الغرب وبقية الشرق .

حركة التطور

بعد هذه الرحلة بين الدول الإسلامية المعاصرة يجوز لنا أن نتساءل : أليس هناك إذن دولة أو دول دينية بمعنى الكلمة فى عالم الإسلام اليوم ؟ من أسف أن النظم السياسية القليلة التى تتخذ من الإسلام بالفعل أساساً للحكم والسلطة ليست إلا ثيوقراطيات رجعية متخلفة متحجرة تمثل ربما أسوأ دعاية ممكنة لفكرة الدولة الدينية الإسلامية . وبعض هذه الدول الثيوقراطية تدهورت من أسف إلى أدوات للقهر السياسى وتكريس التخلف والجمود ، وإلى قوى سلفية تسعى إلى العودة إلى الماضى وتعادى التطور باسم الدين . ولعل الإمامة فى يمن ما قبل الثورة أن تكون المثل أو

---

(١) المصدر السابق . ص ١٧٨ .



شكل (٦) خريطة الإسلام السياسية ، التقسيم الثلاثى مبنى على أساس كثافة الإسلام السياسية ، أى نسبة الإسلام في كل دولة .

بالأصح الأمثولة ، بينما ثمة كانت مرحلة أقلّ تخلفاً وانغلاقاً نسبياً فى ليبيا ما قبل الثورة .

على أن الملاحظ من الناحية الأخرى ، كما فى هاتين الحالتين بالفعل ، أن تلك الأنظمة نفسها ، بما تخلق من مناخ سياسى وحضارى واجتماعى يدفع إلى الانفجار بعد الغليان ، كانت من أكثر الدول عرضة لمد الثورية الكاسح والمعاصر فى العالم الثالث ، الذى يتهدد بقيتها الآن بالقوة أو بقوة . ومن ناحية أخرى ، فإن هناك بين الدول شبه الدينية مرحلة أكثر علمانية تجدها باطراد فى كل من الأردن ودولة المغرب .

وعدا هذا فثمة دولة جديدة تسمى نفسها « بالإسلامية » هى جمهورية موريتانيا ، غير أن هذا حفزت إليه اعتبارات سياسية أكثر منها دينية فى الحقيقة ، ونعنى بها الرد على ادعاءات الدوائر الحاكمة فى المغرب المتاخمة التى تخذ مسحة دينية موروثة ، ولم تكن تخفى أطماعها التوسعية فى موريتانيا . ومن حسن التوفيق أن هذا الصراع السياسى بين الدولتين المسلمتين الشقيقتين الجارتين قد صفى أخيراً ، حيث اعترفت المغرب بموريتانيا دولة مستقلة ذات سيادة وتخلّت عن ادعاءاتها السياسية فيها ومحاصراتها الدبلوماسية لها .

وتبقى فى النهاية حقيقة هامة كما هى عامة عن الدول الدينية الإسلامية . فالملاحظ أن أغلب هذه الحالات هو المنتج النهائى للدويلات المحلية التى بدأها فى القرن الماضى شيوخ الطرق فى توقعات الصحراء بدعوى الدفاع عن الإسلام ضد الأخطار الاستعمارية ، والتى أصبحت بعد ذلك ورغم ذلك دولا من صنع الاستعمار وخاضعة له وأدوات تابعة كل التبعية . والملاحظ أيضاً أنها تتحول بالتدريج عن الشكل الدينى إلى المحتوى العلمانى باطراد ، وأنها بذلك فى سبيلها التمهيدى إلى الانقراض ، دليلا على أنها لا تصلح للبقاء فى حضارة النصف الثانى من القرن

العشرين . وقد لا يدل هذا بالضرورة على عجز فكرة الدولة الدينية من حيث هى ، بقدر ما يدل على تحريف أصحابها لها وفشلهم فى تطبيقها .

الدول نصف الإسلامية

فإذا ما انتقلنا إلى الدولة النصف الإسلامية - النمط اللبنانى إذا شئت - وجدنا قلّة معدودة لا تزيد عن الأربع : لبنان كالنموذج الكلاسيكى ، ثم إثيوبيا ونيجيريا وتشاد في إفريقيا على « خط الاستواء البشرى » منها بين الشمال والجنوب . والأوليان من دول السهل والجبل ، والأخريان من دول الصحراء والغابة ، أى أن هناك ثنائية طبيعية تميزها جميعاً إلى جانب الثنائية الدينية ، وهى علاقة جديرة بالانتباه .

ورغم الفروق العديدة التى تميز بين هذه الدول المتباعدة ، فثمة تجمع بينها عدة ملامح جوهرية لا تخطئها العين فى التركيب السياسى ، تتواتر وتتكرر فى تنويعات قد تكون أحياناً ثانوية ولكنها لا يمكن إلا أن تجعل منها جميعاً عائلة سياسية واحدة . وليس شك أن الضابط الأساسى خلف هذا التشابه العائلى إنما هو التركيب الدينى بتوازنه الدقيق .

الملامح المشتركة

ففيها جميعاً تتقارب كفتا الميزان ، ميزان الأديان ، بدقة مقلقة ، أو فى شد حبل متوتر . وليس من الصدفة بالتأكيد أن مجرد تعداد السكان فى أكثر من حالة منها قضية سياسية حلت إما بعدم التعداد أحياناً (لبنان) أو تخلفاً (إثيوبيا) وإما بتعداد - معركة (نيجيريا) ! وحيث تتنوع التضاريس كما فى لبنان وإثيوبيا فالسهول للإسلام وللمسيحية الجبال ، وإلا فهو الشمال للإسلام والجنوب لسواه (تشاد ونيجيريا) .

ولا ينتهى التناظر عند هذا الحد ، بل يمتد إلى الشكل السياسى أيضاً . فالانفصالية المعلنة ، أو على الأقل الصراع السياسى السافر ، سمة شبه مشتركة عرفها لبنان الصغير قبل الكبير ، وعاشتها نيجيريا الاتحادية بعنف ، وتتفجر أحياناً - وهى المكبوتة - فى إثيوبيا التى كانت اتحادية وبالقوة لم تعد . إنها باختصار دولة الثنائية الدينية ، دول « ميزان الرعب الطائفى » كما وصفت ، وهى لذلك « جنة » المؤمرات الاستعمارية كما أثبتت التجربة . ولقد قيل عن بعضها بحق إنها عربة يجرها جوادان كل يشد فى اتجاه مضاد ...

ولنفصّل . فى لبنان ظل التعداد بانتظام موضع أخذ ورد وشكوك من الجانبين ، وفى غياب الدقة الوثيقة يدّعى كل من الطرفين أنه يمثل الأغلبية الآن : المسلمون على أساس معدل المواليد الأعلى تقليدياً ، والمسيحيون على أساس أن هجرتهم إلى المهجر قد توقفت منذ وقت بعيد . وتقدر بعض المصادر أن نسبة الإسلام فى لبنان اليوم ٥٧٪ أما فى إثيوبيا فليس ثمة تعداد حتى الآن ، وتقدير حجم السكان الكلى ، فضلا عن نسبة الإسلام ، أمر متروك للتخمين البحت ، ومفتوح لكل التأويلات والايحاءات ، ولكن التقدير السائد هو التنصيف . ومثل هذا يثبته التعداد بالفعل لإرتريا (المسلمون نصف مجموع السكان البالغ ١,٥ مليوناً) .

أما فى نيجيريا فقد كانت نسبة الإسلام كما رأينا تقدر بصفة عامة بنحو ٤٦٪ أيام الاستعمار (تعداد ١٩٥٣) [١] ، ولكن مع الاستقلال وازدياد حدة الصراع الداخلى القائم على أسس قبلية ودينية ، أصبح للعد والنسبة وزن سياسى جديد . وقد انعكس هذا على أول تعداد لنيجيريا المستقلة (١٩٦٣) حيث تحول إلى أزمة سياسية خطيرة كان لها دوىّ عالمى واسع وارتبطت بالاضطرابات والعمل البوليسى بل وإراقة الدماء ! وخرجت نتيجة التعداد وهى موضع شك الجميع سواء من حيث نسب

(١) W. H. Lewis, Islam and Nationalism in Africa, in : Arab Middle East & Moslem Africa, ed. T. Kerekes, Lond., 1961, pp. 72-4.

الديانات المختلفة أو من حيث مجموع السكان العام (٥٥,٥ مليون نسمة) الذى تورّم برغبة كل طائفة فى تضخيم عددها . ولهذا فمن الأسلم ربما الاعتماد على نسب الديانات المختلفة فى أقاليم نيجيريا بحسب تعداد ١٩٥٣ ، وكانت كالآتى فى المائة :

الإقليم	مسلمون	مسيحيون	آخرون
الشمالى	٦٩,٣	٣,١	٢٧,٦
الشرقى	٠,٣	٥٠,٠	٤٩,٧
الغربى	٣٢,٣	٣٦,٢	٣١,٥
الفيدرالى	٤١,٨	٥٥,٠	٣,٢
نيجيريا	٤٤,٣	٢١,٩	٣٣,٨

هكذا نرى أن مجرد تحديد نسب الأديان فى الدول النصف الإسلامية هو أول وأبسط عرض من أعراض التوتر الداخلى الكامن والعميق . ولكن الجوانب المادية والاقتصادية فالسياسة عرض أخطر . وهنا مرة أخرى تتكرر أغلب الملامح بين هذه الدول إلى حد يؤكد فيها صفة النمط والنوع المشترك . فحيث تتنوع التضاريس كما فى لبنان وإثيوبيا ، فالسهول يسودها الإسلام (اسلامبحرى فى إثيوبيا) والجبال معاقل المسيحية (الجبل فى لبنان) ، وإلا فهو الشمال للإسلام والجنوب لما عاداه (تشاد ونيجيريا) . وهذه التوزيعات والارتباطات طبيعية من حيث أن الجبال فى الحالة الأولى كانت أصلا مناطق الالتجاء وقلاع حماية للعناصر المستضعفة المغلوبة ، ومن حيث أن الشمال فى الحالة الثانية ، كان مصدر زحف الإسلام وتقدمه . ولكن الغريب أن التوازن الاقتصادى والسياسى بعد هذا يبدى شذوذاً خاصاً ، يكاد أن يكون قلباً تاماً للمنطق الطبيعى والقانون الجغرافى .

ففى الدولتين المضرستين ترجح كفة الجبال - فى الماضى بدرجة أقوى ، ولكن حتى الآن بدرجة ملحوظة - ترجح فى الثروة الاقتصادية ومستوى الدخل والمعيشة ودرجة التطور الحضارى والتعليم ، وبالتالى تتركز السلطة والقوة السياسية فيها . ففى لبنان - حيث يعبر عن الاقتصاد الزراعى بصيغة طائفية أحياناً فيقال : إن التفاح مارونى والبرتقال مسلم (!) - يقوم النظام السياسى كله وتوزيع القوى فيه ، كما يحدده بوعى وعن عمد الميثاق الوطنى ، ليس على أساس الطائفية المباشرة فحسب ، وإنما على أساس أن اليد العليا هى بوجه عام للجانب المسيحى [1] . أما فى إثيوبيا فالنظام الامبراطورى مسيحى بلا موارية ولا توسط فى وجهته ومسحته وسياسته . وبعامة ، فإن وضع المسلمين فى إثيوبيا لم يكن مريحاً فى أى وقت .

أما فى تشاد ونيجيريا ، فالملاحظ أن الجنوب هو الأكثر تطوراً ورقياً ، ماديا وحضارياً وثقافياً ، أما الشمال الإسلامى فأكثر تخلفاً وجموداً نوعاً ما ، ومن ثم فإن السلطة السياسية تجنح تلقائياً إلى أن تتركز فى الجنوب : فإذا قدم الجنوب مثلا الحكام وكبار الإداريين والموظفين ، قدم الشمال الكتبة وصغار العاملين ، وإذا قدم الجنوب ضابط الجيش وقادته ، قدم الشمال الجنود والرتب الدنيا .. إلخ . وهذا قلب تام للقاعدة العامة المألوفة من أن الإسلام فى إفريقيا السوداء هو الذى رفع مستوى حضارة ومعيشة أتباعه بالنسبة إلى العناصر الأخرى وثنية أو غير ذلك .

غير أن الذى يفسر ذلك إنما هو الموقع الجغرافى وسياسة الاستعمار . فقد دخل الاستعمار هنا من السواحل ، من الجنوب ، وركز نشاطه التبشيرى بجانب نشاطه الاقتصادى والتنمية الحضارية فى الجنوب دون الشمال القصى ، فكان أن تخلّف الشمال مادياً وثقافياً وظل على ما كان عليه بينما انتقل الجنوب نقلة حضارية واسعة . ومن هنا ارتبط الإسلام الشمالى بالفقر والتخلف ، وأصبحت اليد العليا سياسياً

(١) Royal Institute of International Affairs, The Middle East, Lond., 1958, pp. 452 - 400.

للجنوب غير المسلم [١] . وفى النتيجة فإن الإسلام فى كل الدول النصف الإسلامية يصبح هو الطرف الأضعف فى التوازن الوطنى .

ولا ينتهى التناظر بين هذه الدول عند هذا الحد ، فمثل هذه الأوضاع حبلى بطبيعتها بالنتائج السياية الخطيرة التى تتداعى بدورها فى تناظر تلقائى بعيد المغزى. ففى كل هذه الدول تصطرع الاتجاهات السياسية المتنافرة على أساس طائفى لا جدال فيه للأسف ، وتتجمد الأحزاب السياسية على قوالب طائفية واضحة التبلور . فالانفصالية المعلنة أو على الأقل الصراع السياسى السافر سمة مشتركة . وإذا بدت هذه الدول شكلا وقانوناً دولا علمانية ، فإن أغلبها فى حقيقته دول دينية فى أكثر من معنى ، بل وبأكثر مما تبدو بعض الدول الثيوقراطية رسمياً خارج أو داخل العالم الإسلامى !

مسح إقليمى

ففى لبنان لازال التاريخ يتذكر بمرارة صدام ١٨٦٠ الذى باد فيه بضعة ألوف من المسيحيين وكذلك من المسلمين ، والذى تمخض عن تدخل الدول الأوربية - فرنسا خاصة - لتفرض حمايتها على الأقلية المسيحية ولتنتزع لها من الدولة العثمانية وضعاً خاصاً كان هو بلا ريب أساس انفصالية « الكيان » اللبنانى فيما بعد . وحتى الآن يحتفظ لبنان « بوضع خاص » بين الدول العربية انتهى به إلى حالة من التحفظ السياس تقريباً أو قل التحييد السلبى نوعاً الذى سلبه قدراً من فاعلية وتأثير .

---

(١) جمال حمدان ، إفريقيا الجديدة . دراسة فى الجغرافيا السياسية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٧٧ .

وعلى سبيل المثال فإن النصف المسلم ، الذى كثيراً ما طالبت مناطق عديدة منه بالانفصال عن دولة لبنان قبل ومنذ الاستقلال ، يطالب أحياناً بالوحدة مع سوريا ويؤيد الوحدة العربية الكبرى ، فى حين أن النصف الآخر يعارضها بعامة ويصر على كيان التجزئة والانفصال . والأحزاب والتكتلات السياسية جميعاً ليست إلا انعكاساً مباشراً للتكوين الطائفى وتعبيراً حاداً عنه [1] .

وبين هذا وذاك نفذ الاستعمار والنفوذ العربى إلى لبنان ليجعل منه بحق سويسرة العرب سياسياً ، بمثل ما جعلته الجغرافيا سويسرة الشرق الأوسط طبيعياً . فلبنان - باعتبار طغيان العاصمة على كيانه العمرانى وحياته المادية - ليس « دولة مدينة » فحسب ، وإنما هو أبعد من هذا « مدينة مفتوحة » . أى أن كل الوجود الاجتماعى والمادى ، البشرى والاقتصادى للبنان فى الداخل ، وكل سياسته وتوجيهه فى الخارج عربياً وعالمياً ، هو فى التحليل الأخير وظيفة للطائفية بطريقة أو بأخرى . من هنا جميعاً صح أن نقول إنه إن يكن خير ما فى لبنان أنه بالتحديد سويسرة الشرق الأوسط طبيعياً ، فلعل أخطر ما فيه أنه بالدقة سويسرة العرب سياسياً ..

على أن هذه إن تكن هى الصورة التقليدية للجغرافيا السياسية الداخلية للبنان، فإن هناك الآن مؤشرات واعدة بتغيرات هامة وطيبة . فمن ناحية بدأ يتضح للكثيرين أن الطائفية نتيجة بقدر ما هى سبب ، كبش فداء مثلما هى حد الموسى : ذلك أنها أيضاً ستار للمصالح الطبقية الموروثة والمكتسبة وذريعة لتكريس علاقات الإنتاج الراهنة . ومن ناحية أخرى فهناك التطور الحضارى المذهل الفوار الذى حققه لنبان فى العقود الأخيرة ، والأجيال الجديدة التى نشأت فى هذا المناخ العلمانى المتقدم. وأخيراً فمثة الخطر الصهيونى المحدق . كل هذه العوامل مجتمعة هى من مذيبات الطائفية عموماً ، وقد بدأت بالفعل تكسر من حدة العامل الطائفى وتدفع به بالتدريج

(١) R. I. I. A. The Middle East, loc. cit.

بعيداً نوعاً عن موقع الصدارة المطلقة . وعلى أية حال ، فالمؤكد أن الطائفية – التى هى كقاعدة عامة ظاهرة تمت إلى الماضى – لم تعد تلعب فى كيان لبنان المعاصر دورها التقليدى القديم ، وقد لا تكتمل دورة القرن إلا وهى عنصر ثانوى أو جانبى . وبمقدار ما تتراجع الطائفية ، سيتقدم لبنان إلى دوره الطبيعى والطليعى فى العالم العربى .

من سويسرة الشرق الأوسط نتقدم إلى سويسرة إفريقيا ، إثوبيا التى يتضح تاريخها الحديث هى الأخرى بالاضطهادات الدينية التى كان ضحيتها المسلمون . وبالفعل ، يسجل التاريخ القريب عدداً من المذابح المعروفة ، وفى الوقت الحالى لا يعدم الإسلام فى إثيوبيا بعض اتجاهات انفصالية ولكنها خافتة مكتومة ، بينما هو فى إرتريا انفصالى علناً irredentist ، خاصة بعد أن حول الحكم الإثيوبى الدولة من اتحاد إلى وحدة بقوة السلاح ورغم قرارات الأمم المتحدة التى فرضت الاتحاد أصلا . وهناك حركات سياسية مستمرة حتى الآن تعارض الوجود الإثيوبى وتعده احتلالا لا اتحاداً ، وتتطلع بلهفة إلى فضه [١] .

أما فى تشاد فالشمال المسلم أهدافه السياسية هى المحافظة على التقاليد الإسلامية فى التعليم والشئون الاجتماعية .. إلخ ، وتخفيف الارتباط بفرنسا وزيادة الارتباط بالدول الإسلامية المجاورة فى الشمال . أما الجنوب الوثنى – المسيحى فيريدها علمانية فى التعليم والتطور الاجتماعى ، كما أنه بشدة ضد أى اتحاد مع ، أو اتجاه سياسى نحو ، كتلة الدول الإسلامية المحيطة [٢] . وفى السنوات الأخيرة توترت علاقات تشاد مع جارتيها العربيتين الإسلاميتين ليبيا والسودان ، وتعددت حوادث الحدود كما تعقدت تيارات اللاجئين السياسيين المتبادلة . ولكن هناك الآن لحسن الحظ محاولات جادة لتصفية هذه المشكلات وتسويتها . على أن هذا التضارب السياسى

---

(١) حمدان . إفريقيا الجديدة ، ص ٢٧٨ .

(٢) Lewis, op. cit. pp. 72 - 3.

فى تشاد هين أمره ويتضاءل كثيراً إذا ما قورن بنيجيريا آخر وأضخم الدول النصف الإسلامية .

فهنا فى نيجيريا طالب الشمال المسلم فى آخر أيام الاستعمار بالاستقلال منفصلا عن الجنوب الوثنى - المسيحى ، ولكن بلا جدوى ، ففرض النظام الفيدرالى كحل وسط . ولكن ظلت نيجيريا المفككة تعانى من الصراعات والاضطرابات الداخلية التى جعلت وزنها السياسى فى المجتمع الإفريقى ضئيلا لا يتناسب البتة مع حجمها كأكبر دول القارة سكاناً ، وجعلتها معقلا أخيراً ومضموناً للنفوذ الاستعمارى القديم . وقد ظل الشمال يعد الاتحاد « استعماراً جنوبياً » ويصر على الانفصال التام ، مؤكداً أن نيجيريا ليست دولة واحدة بل عدة دول مختلفة متناقضة كما أعلن مراراً باليوا .

وقد وصل الصراع إلى منتهاه فى انقلاب عسكرى وانقلاب عسكرى مضاد تعاقبا فى غضون شهور من عام ١٩٦٦ ، وحمل كل منهما من بين ملامحه ملمحاً دينياً لا يقبل الشك : الأول قام به الإقليم الشرقى وانتظم مذبحة للزعماء المسلمين ، وفرض الوحدة بالقوة بدل الاتحاد ؛ والثانى رد به الإقليم الشمالى ونسخ معه انقلاب الشرق ، وانتظم هجرة ضخمة راجعة للشرقيين المغتربين (٣٠٠ ألف) من الشمال إلى الجنوب ، كما أعاد النظام الفيدرالى ، واقترن بحديث عن الانفصال التام بين أقاليم الدولة المركبة .

وقد وصل الصراع إلى قمته فى المرحلة الثالثة والأخيرة حين فجر الإقليم الشرقى قضية الانفصال بصورة دموية كاملة . ففى أواخر الستينيات أعلن الانفصاليون من الأيبو فى الإقليم قيام دولة مستقلة أطلقوا عليها جمهورية بيافرا . وهنا اشتعلت الحرب الأهلية التى استمرت عامين أو ثلاثة وكلفت نيجيريا من الأرواح ما قدر بنصف المليون أو المليون ، فضلا عن الخسائر المادية والشلل الاقتصادى الدمار.. إلخ . ولقد كانت قوى الاستعمار التقليدية بالإضافة إلى الصهيونية

الإسرائيلية من وراء الانفصال بالسلاح والتأييد السافر . غير أن الحكومة المركزية صمدت حتى تغلبت وسحق الانفصال الذى لو نجح لكان سابقة خطيرة فى القارة ما كانت لتعدم سلسلة من ردود الأفعال المشابهة . بل على العكس ، خرجت الوحدة النيجيرية من التجربة وهى أقوى ، إذا ألغى التقسيم الإقليمى الرباعى القديم الذى بلور الاختلافات والخلافات ، وحل محله أكثر من عشرة من الوحدات الإدارية المتوسطة الحجم المتنوعة التركيب .

وعند هذا الحد لابد من سؤال ختامى : هل حقاً كان الصراع السياسى فى نيجيريا ، على نحو ما صور أحياناً ، مبارزة دينية مثلما هى قبلية بين الشمال والجنوب؟ مثل هذا التحليل ليس سليماً ، والواقع أنه مغالطة من وضع دعايات القوى الاستعمارية . فمن المحقق ابتداء أن الصراع لم يكن قبلياً صرفاً ، لأن الأيبو مثلا لم يكونوا رغم أغلبيتهم المحلية إلا قبيلة واحدة من عديد من القبائل فى الإقليم الشرقى القديم . ومن الثابت كذلك أن العامل الدينى لم يكن إلا عاملا ثانوياً فى الصراع ، ولكنه كالعادة كان قناعاً مناسباً لأى مصالح أخرى . وأهم هذه المصالح هنا كانت المصالح الاقتصادية ممثلة فى الثروة البترولية الكبيرة التى انبثقت حديثاً فى أرض الإقليم الشرقى ، والتى كانت تستغلها الاحتكارات الاستعمارية ومن أجلها وحدها غذت الانفصالية ووقفت وراءها .

دول الأقليات الإسلامية

تبقى الآن دول الأقليات الإسلامية التى تؤلف أكثر من نصف دول العالم الإسلامى عدداً وإن ضمت نسبة محدودة من قوة المسلمين . فيها تتراوح نسبة الإسلام

بين الأقليات الكبيرة والأقليات الصغيرة ، بين الثلث كما فى بعض دول غرب إفريقيا ، والثمن كما فى يوغسلافيا ، والعشر كما فى الهند وبلغاريا ، أو نصف ذلك فى الصين، وجزء من المائة أو دون ذلك فى بعض الحالات . وفى مثل هذه الظروف لا يمكن أن تكون للإسلام تطلعات سياسية فعالة ، ولا يملك على الأكثر إلا رغبة انفصالية مكبوتة لا أمل فى تحقيقها ، بينما يتعرض بسهولة للضغوط والكبت بالقوة من جانب الدولة . غير أنه فى أغلب الأحوال انتزع لنفسه مكانة اقتصادية مرموقة أكثر من أن تتناسب مع حجمه ، وفرض لنفسه وضعاً اجتماعياً محترماً . بيد أنه على كل حال يظل فى وضع غير مريح بعامة . وهو فى بعض الدول الإلحادية كما فى الجبهة الأوراسية يحارب أو لا يشجع كجزء من السياسة العامة ضد الأديان . وربما هدده هذا فى المدى الطويل بأن يغرق فى بحر الايديولوجيات . وهو فى بعض الدول الناشئة فى الجبهة الإفريقية لا يحارب انتشاراً ، ولكنه لا يحبذ كقوة سياسية عاملة مؤثرة أو غير ذلك .

الدول الأفروأسيوية

والتفصل . دول الأقليات الإسلامية بإفريقيا ، وأغلبها فى غرب القارة وشرقها ، هى حالياً الوحدات التى يزحف فيها الإسلام بقوة والتى يرجح له فيها أكبر توسع خلال العقود القادمة . والإسلام يتركز هنا عادة فى الشمال من الدولة فى غرب إفريقيا ، وفى الشرق منها فى شرقها . وعلى نسبة وقوة عدد المسلمين يتوقف دورهم السياسى إلى حد بعيد . ففى الكمرون ، من أبرز حالات الأقليلات الكبيرة ، تصل نسبة الإسلام إلى الثلث ، ولكن الشمال المسلم هو الطرف الحاكم وذلك - كما كان فى نيجيريا - بفضل خلافات الجنوب القبلية .

وللإسلام فى شرق إفريقيا وزن سياسى خاص بسبب تركزه النسبى فى دائرة زنجبار على طول ساحل كينيا وتانزانيا . فعلى الجانب الشمالى لكينيا مسلمو «الصومال الكينى» الذين طالبوا ويطالبون بالانفصال عن كينيا لينضموا إلى «الصومال الكبير» . على أنه إذا كانت هذه حركة قومية قبل أن تكون دينية بحته كان العنصر الدينى أوضح فى حركة انفصال القطاع الجنوبى حيث يتركز المسلمون من أصل عري وفارسى فهنا هنا قامت قبل الاستقلال دعوة إلى إنشاء دولة مستقلة جديدة - مافانباو كما دعوها - تتركز حول ممبسة . والمقول أن الاستعمار البريطانى المغادر كان يقف خلف هذه النزعة الانفصالية ضماناً لمصالحه الاقتصادية والاستراتيجية . ولكن الحركة لم تنجح حتى فى فرض النظام الاتحادى وذابت فى كينيا المستقلة الموحدة . ومن الناحية الأخرى فإن زنجبار المسلمة تماماً والتى كانت وحدة منفصلة قد اندمجت مع تنجانيقا فى دولة تانزانيا .[١]

ويبدو من هذه التجارب الحديثة المعاصرة أن دور الإسلام السياسى فى دول الأقليات الإسلامية يصعب على الأرجح أن يكون الانفصال فى كيان مستقل . وفى المقابل يبدو أنه لا ينبغى أن يكون دور الاكتفاء والقطيعة ، وإنما دور المبشر والطليعة، بمعنى أن تكون الأقلية الإسلامية نواة وخميرة لنشر الدين وكسب بقية المواطنين إليه .

أما حيث تتضاءل الأقليات الإسلامية أكثر وأكثر ، لاسيما إذا تشتت جغرافياً بدل التركيز ، فلا محل للكلام عن حركات أو اتجاهات انفصالية ، وإن لعبت دوراً سياسياً هاماً . غير أنها هنا قد تصطدم بالدولة الوطنية ، وربما تعرضت لعملها البوليسى . ففى غانا لم تشجع الحكومة وجود حزب مسلم فظل نشاطه مشلولا . وفى قبرص حيث يمثل الإسلام أقلية دينية وقومية معاً ، ولا يزيد عن خمس السكان ،

---

(١) حمدان ، إفريقيا الجديدة ، ص ٢٧٧ - ٢٨٠ .

تشتد الحركة الانفصالية مطالبة إما بتقسيم الجزيرة أو تفديرها أو الانضمام إلى تركيا الأم ، ولكن بقدر عنف الحركة بقدر عنف المقاومة من جانب الدولة الجديدة .

وفى جنوب شرق آسيا عدة أمثلة دالة ومشابهة . ففى الفلبين لم يشترك المسلمون فى ثورة « هو كبالاهاب » المعروفة Houkbalahap ، ولكن روح « الجهاد » غذت فيهم حركة انشقاق محلية فى ١٩٠٤ قابلتها الحكومة بكثير من العمليات العسكرية ، وليس البوليسية فحسب . وفى ماليزيا ، ثمرة ونواة دعوة « الملايو الكبرى Greater Malaya » يقدر أنه لا مفر للمسلمين المتكلتين جغرافياً فى أقصى جنوب تايلاند على حدود الملايو من أن يتطلعوا يوماً ما إلى الانفصال عن تبعيتهم الراهنة لينضموا إلى الوطن الأب المسلم [١] .

أما فى الهند فثمة موقف معقَّد أو متشابك إلى أقصى حد ، ويمثل خميرة الصراع السياسى الذى وصل أخيراً إلى حد الحرب غير المعلنة بين الهند والباكستان . ففى جنوب الهند لا مفر للأقليات الإسلامية ، على ضخامتها المطلقة ، من الضياع فى الكيان السياسى للهند ، ليس فقط لضآلتها النسبية ولكن أساساً لتمزقها وتشتتها فى المحيط الهندوكى الذى يتخللها ويخلخلها إلى أبعد مدى . وقصارى تطلعات الإسلام هنا أن يكون خشبة القفز أو موطئ القدم فى عملية التبشير والانتشار . أما فى الشمال بعامة حيث يتحول الإسلام إلى أقليات كبيرة مركزة فالوضع مختلف ، وهو مختلف جذرياً فى الشمال الغربى خاصة حيث يصبح الإسلام فى كشمير هو الغالبية الساحقة على نحو ما وضحنا قبلا .

---

(١) روندز . جـ ٢ ، ص ٢٦ ، ٢٩ .

فى العالم الشيوعى

ماذا عن الإسلام فى العالم الشيوعى ؟ كيف تبدو تجربته السياسية التى لا يمكن إلا أن تكون خطيرة مفعمة على أقل تقدير ؟ نبدأ بالاتحاد السوفيتى [١] . منذ حطم قياصرة آل رومانوف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الدول والإمارات والخانات الإسلامية المتعددة التى كانت ، على النمط الوسيط المتخلف ، ترصع وسط آسيا حتى القوقاز ومشارف الفولجا ، أصبح الإسلام أقلية صغيرة فى روسيا ، وتعرض بانتظام لمطاردات واضطهادات وتحقير القيصرية ، التى لم تكن حضارياً واجتماعياً بأرقى كثيراً من تلك الإمارات نفسها ، كما تعرض لحملات تبشيرية عنيفة نجحت أحياناً كما يقال فى تحويل بعض من التتار والترك المسلمين إلى المسيحية وإن عادت هذه العناصر جميعاً بعد ذلك إلى الإسلام (؟) . ومن الواضح أن الإسلام الروسى كان يرى نفسه مختلفاً جذرياً ، جنسياً وقومياً ودينياً ، عن القيصرية ، ولم تنقطع محاولات الاستقلال كما لم تتوقف حملات القمع والإرهاب : كما لخص لينين نفسه الموقف جميعاً ، كانت الامبراطورية « سجناً كبيراً للأمم » .. [٢]

ومع الاتحاد السوفيتى يبدأ موقف جديد معقد ودقيق . فرأى الإيديولوجية الشيوعية فى الأديان جميعاً معروف ، التنافر بينهما مفهوم . ومن المعروف كذلك أن عملية تشريك المجتمع وتشييعه لم تتم هنا بسهولة أو بغير عنف وضحايا . ومع ذلك فقد تركت حرية العقيدة رسمياً ، وإن تعرض الإسلام مع غيره من الأديان لحملات الدعاية المضادة التى لا تنقطع والتى يطلق عليها البعض فى الغرب - وخزاً - campaignology ، فضلا عن أن مناخ الحياة الشيوعية اليومية كان عاملا معاكساً للممارسة الإسلامية .

---

(١) روندو . جـ ١ ، ص ٢٩٦ - ٣٢٠ ، جـ ٢ ص ١٧٩ - ١٨٣ .

(٢) J. Gregory, Lanb of the Soviets, Peliccan, 1946, pp. 47 - 8.

وفى النتيجة بدا – فى رأى المستشرقين والمراقبين الغربيين الذى لا مرجع لنا سوّاهم بالضرورة ، والذين قد لاتخلو نظرتهم من تلون خاص بالضرورة أيضاً – بدا كما لو أن الإسلام يتعرض لعملية تصفية desislamisation ، أو على الأقل إلى عملية تقزيم وتكلس . ويرى البعض أنه ظل موجوداً وإنما موقوفاً كما قد نقول ، بمعنى أنه لم يعش إلا بين الشيوخ والأجيال المنطوية ، وفى صورة بدائية وحياة غير نشطة بعد إذ انعزل الإسلام السوفيتى عن العالم الإسلامى الكبير فى صندوق مغلق .

على أن هناك من الناحية الأخرى إجماعاً بين المراقبين على أن الإسلام يمر فى السنوات الأخيرة – بعد مرحلة سبات طويلة – بمرحلة صمود بل ربما إحياء ، وذلك كرد فعل طبيعى للضغوط العقائدية المضادة ، لاسيما مع انصباب الهجرة الروسية (السلافية) التى وصلت إلى أبعاد خطيرة وتؤذن بتحويل الأهالى إلى أقليات ، وأقليات متضائلة باطراد ، فى صميم أوطانهم المحلية التاريخية . وهذا جدول يرسم صورة بلغية لتطور الهجرة الروسية إلى وسط آسيا السوفيتى وأثرها الإثنولوجى على تركيب السكان فالأديان .

المنطقة	عدد السكان ١٩٥٩[١]	الروس ٪ ، ١٩٢٦	الروس ٪ ، ١٩٥٩[٢]
كازاكستان	٩,٣٠١,٠٠٠	٢٠	٤٣
أوزبكستان	٨,١١٣,٠٠٠	٦	١٤
تركمانستان	١,٥٢٠,٠٠٠	٨	١٧
تاجيكستان	١,٩٨٢,٠٠٠	١	١٣
قيرغيزيا	٢,٠٦٢,٠٠٠	١٢	٣٠
أزربيجان	٣,٧٠٠,٠٠٠	١٠	١٤
أرمينيا	١,٧٦٨,٠٠٠	٢	٣
جورجيا	٤,٠٤٩,٠٠٠	٤	١١

(١) World Almanac, 1962, p. 381.

(٢) كرل ، ص ٥٣ .

تدفق الهجرة الروسية إذن تيار حقيقى وقوى ولا سبيل إلى التقليل منه ، ويرى فيه البعض – إن خطأ أو صواباً – خطة بعيدة المدى « لترويس russification » وسط آسيا . وسيلاحظ بوجه عام أن أعلى نسب للروس هى فى أكبر الجمهوريا سكاناً ، التى هى أيضاً أكثرها شمالية . وإذا كان الارتباط الأخير مفهوماً بحكم الموقع الجغرافى بالنسبة إلى مصدر الهجرة ، فإن الارتباط الأول يضاعف من الوزن الحقيقى لحجم الهجرة . ومهما يكن ، فإذا كانت تلك الهجرة قد خفضت من نسبة الإسلام فى المنطقة ووضعت حداً لسيادته العددية شبه المطلقة ، فإن رد الفعل أتى فى صورة المقاومة الدينية .

وتتناسب هذه المقاومة بالفعل تناسباً طردياً مع نسبة تلك الهجرة . ومعها يتجاور الطرفان تجاوراً ميكانيكياً دون انصهار كيماوى ، ويظل الزواج داخلياً ونظم الحياة العائلية متباينة ، وإن كانت الأقليات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى قد أصبحت تمثل قطاعاً من أكثر قطاعات الإسلام العالمى تقدماً وتطوراً فى العلوم والتكنولوجيا الحديثة . والمحصلة العامة للموقف كما يرى البعض أن هناك نوعاً من الشعور « بالقومية الإسلامية nationalism musulman » فى الاتحاد رغم كل جهود الدولة والنظام والحزب .

أما عن الشكل السياسى ، فقد تصور بعض زعماء المسلمين فى بداية الثورة البلشفية أن يكون دور الإسلام السوفيتى هو حلقة الوصل بين الثورة الشيوعية وبين ثورات التحرير فى العالم الإسلامى أو فى العالم الأسيوى ، وعلى هذا الأساس حاول إنشاء جمهورية إسلامية هى جمهورية الإيدل – أورال Idel - Oural كنواة . غير أن الثورة رفضت المشروع خشية أن يفلت زمام الإسلام السوفيتى منها فى سيل أحلام خارجية ، ووأدت الحركة فى مهدها .

ومن الناحية الأخرى ، فلقد طبق الاتحاد سياسته اللينينية الخاصة بالقوميات والأقليات وهى « الديموقراطية الإثنولوجية » أو « القومية الموجهة » التى تقوم على الاعتراف بالقوميات والشعوب المختلفة وتحديد وحدات سياسية لها داخل الاتحاد قائمة لا على التاريخ أو الجغرافيا أو الاقتصاد وإنما أساساً وفى الدرجة الأولى على الشعوب والأمم ، وتتمتع بدرجة من الحكم الذاتى . وفى هذه الحدود يشجع الفلوكور الشعبى ويمجد ، وكذلك الأبطال الوطنيون ، ولكن - وهذا هو المهم - مع الابتعاد أساساً عن ذكريات الإقطاع والتراث الإسلامى ومُثُل الجامعة الإسلامية ...

وعلى هذه الأسس نال الإسلام « ٦ جمهوريات اشتراكية سوفيتية فيدرالية fed. soc. sov. rep. » ، وهى فى التصنيف السياسى السوفيتى تلك التى تحوى أمماً متجانسة تامة . هذه الجمهوريات هى كازاكستان ، تركمانستان ، تاجيكستان ، أوزبكستان ، فيرغيزيا . ثم تأتى بعد هذا ٩ جمهوريات مستقلة ذاتياً autonomous rep. وهى التى تتألف من سكان أكثر اختلاطاً وتنافراً بحيث تُضم داخل الجمهوريات الفيدرالية ، وفيها يؤلف المسلمون أغلبية أو نسبة هامة . من هذه الجمهوريات باشكيريا وداغستان . ويضاف فى النهاية ٤ أقاليم مستقلة ذاتياً autonomous regions وهى توابع مضمونة كسابقتها ، وتجمع جيوباً صغيرة من الأغلبيات الإسلامية المحلية ، ومن أمثلتها إقليم الشركس فى القوقاز .

أما على المستوى القومى فقد تطوّر وضع المسلمين السوفيت فى عدة مراحل متقلبة . ففى أثناء الحرب العالمية الثانية اتهم المسلمون التتار فى القرم والمسلمون التشتشن والإنجوش والكاراتشى والبلكار من أبناء الفولجا وشمال القوقاز ، اتهموا - هكذا يخبرنا الكُتّاب الغربيون - بالتعاون مع المحور أثناء الغزو الألمانى ، وفى ١٩٤٦ نقلوا بالجملة إلى وسط آسيا وبعثروا فيها ؛ ولكنهم عادوا فى الخمسينيات فسمحوا لهم بالعودة إلى أوطانهم الأصلية .

ومن الناحية الأخرى فقد كان للتقارب السياسى بين العالم العربى التقدمى والاتحاد السوفيتى فى السنوات الأخيرة أثر كبير وإيجابى على وضع المسلمين السوفيت وعلى مدى حريتهم الدينية بما فى ذلك الحج وزيادة اتصالهم بالعالم الإسلامى فى الخارج ، وإن أوّله بعض أعداء الجانبين بمناورة وواجهة من قبل السياسة السوفيتية لكسب العرب وصداقتهم . والواقع أن الإسلام فى الاتحاد السوفيتى يعيش اليوم فى مناخ سياس واجتماعى متفتح متجاوب ، كما يلعب دور حلقة وصل وثيقة فى العلاقات الجيدة والمتطورة بين الاتحاد والعالم العربى .

ويبدى الإسلام فى الصين – نهاية مطافنا فى هذا المسح – مشابهات عديدة فى جوانبه السياسية مع الإسلام السوفيتى ، سواء فى الماضى أو فى الحاضر . فقد كان وضع المسلمين فى الصين مرضياً بصفة تقليدية ويعاملون معاملة طيبة ، إلى أن بدأت المتاعب فى القرن الماضى لاعتدادهم بأنفسهم من ناحية كما يقال ، ولاستجابتهم للفوران الإسلامى الذى اجتاح العالم فى وجه المد الاستعمارى الذى شهده ذلك القرن من ناحية ثانية . فبدأت الدولة تسحب منهم امتيازاتهم وتضطهدهم ، واشتعلت بينهم الثورات التى امتدت فى تقطّع من الخمسينيات حتى السبعينيات سواء فى التركستان (سينكيانج) أو فى يونّان .

وفى وقت ما بدا كما لو أن هاتين المنطقتين قد استقلتا فعلياً عن الدولة ، وبدا للمراقبين فى الغرب كما لو أن الثوار فى المنطقتين على وشك الاتحاد وإقامة دولة إسلامية مستقلة دائمة فى غرب الصين ، إن لم يكن حقاً على وشك اجتياح الامبراطورية نفسها ! [١] غير أن هناك من يرى فى تلك الثورات مجرد انقلاب على سوء حكم المانشو والاضطهاد الدينى الامبراطورى ، دون رغبة حقيقية فى الانفصال

(١) Lothrop Stoddard, The New World of Islam, N. Y., 1921, pp. 61 - 2, 73.

السياسى ، وأن المسلمين فى الصين - وهم بعامة من نفس العنصر الصينى جنسياً - لم يكونوا فى يوماً ما انفصاليين حقاً [١] .

ومهما يكن من أمر ، فالذى حدث بعد سنوات من الحروب المريرة أن استطاعت الدولة إخضاع الحركة ، ولكن بعد أن تكبد المسلمون خسائر جسيمة فى الأرواح حتى هبط عددهم بعد الثورة - التى تعرف بمجموعها فى تاريخ ثورات الصين « بالثورة الإسلامية Mohammedan Rebellion » - بحيث ظل إلى العشرينيات من القرن الحالى لا يزيد عن العشرة ملايين كما ترجح تقديرات المرحلة ، وظلت السياسة الصينية تعامل المسلمين - شأن كل الأقليات فيها - معاملة ازدراء وتعالٍ واضطهاد وتصفهم بالبرابرة .

ومع الجمهورية تبدأ صفحة جديدة . فقد لعب المسلمون دوراً هاماً فى تحرير الوطن حتى استحقوا من صن يات صن قوله « لن ينسى الصينيون قط المساعدة التى قدمها مواطنوهم المسلمون فى سبيل النظام والحرية » . على أن الوضع عاد من أسفل فانقلب رأساً على عقب فى ظل حكومة الكومنتانج الرجعية التى عادت إلى احتقار الأقليات خاصة المسلمين . وبدأت سلسلة من الاضطهادات والمذابح قتل فيها أكثر من ٢٠ ألفاً من المسلمين فى ١٩٢٨ وحرق عدد مماثل من منازلهم فى كانسو وفى هوتشو ، كما تكررت المذابح بين ٣٩ - ١٩٤١ بضحايا قدرت بعشرات الآلاف فى كل المقاطعات خاصة سينكيانج [٢] .

ومرة أخرى يتعدل الموقف مع الشيوعية ، التى تبنت سياسة كسياسة الاتحاد السوفيتى فى الاعتراف بالقوميات والأقليات واحترامها ومنحها الحكم الذاتى داخل

---

(١) S. A .S. Huzayyin, Arabia & The Far East, Cairo, 1942, p. 269.

(٢) مصطفى الأمير . « الأقليات القومية فى الصين الشعبية » ، المحاضرات العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٥٨ ، ص ٥١ - ٥٢ .

نطاق الدولة ـ لئن كنا لا نعرف حالياً بالتفصيل مدى التفاعل السياسى الراهن بين نظام الشيوعية الصينية والإسلام ، فمما لاشك فيه أنه تفاعل إيجابى بنّاء ومتعاطف . كما أن من المحقق هنا أيضاً أن للصداقة النامية بين تقدمية العالم العربى والصين الشعبية أثر على الوضع السياسى للإسلام الصينى .

* * *

الفصل الرابع

نظرية الوحدة الإسلامية

الوحدة والتنوع فى العالم الإسلامى

ليس جديداً أن يتخذ الدين قناعاً للسياسة وستاراً ، ولا كان الإسلام يوماً ما استثناء لهذه القاعدة . فالتاريخ حافل سجّله بالحركات والمناورات السياسية التى تقنعت بالدين وتخفت تحت رايته وبنوده . ويكفى أن نذكر الصليبيات مثلاً ، فما كانت إلا استعماراً مادياً اقتصادياً تنكّر تحت شعار الصليب . وقد لا يخلو الاستعمار الأوروبى الحديث من هذه الصبغة بدرجة أو بأخرى . وتاريخ أوربا نفسها ، لاسيما منه الوسيط ، ينضح بل يطفح بالحركات والأدوار السياسية التى امتزجت بالدين أو تلبست به .

والإسلام فى تاريخه المفعم يزخر هو الآخر بمثل هذه الظاهرة . وصحيح أن الإسلام لا يعرف هيراركية كهنوتية أو وساطة بابوية أو وصاية رجال الدين ، ولكن تاريخه من الناحية الأخرى لم يخل من قدر من تداخل بين الدين والدولة بصورة ما ، بحيث عانى كثيراً من استغلال الدين لخدمة السياسة أو تغطية أغراضها . ومن المعروف ، على سبيل المثال ، أن أغلب الفرق الدينية والشيع والطوائف التى تكاثرت فجأة فى صدر الإسلام وما بعده ما بدأت أصلا إلا كتحزبات وتحيزات سياسية وكصراعات على السلطة والحكم . ولكن بينما فقدت هذه الاعتبارات السياسية معناها وقيمتها بتغير السياق التاريخى إلى أن زالت تماماً ، فإن العصبيات الدينية التى اصطنعتها وافتعلتها افتعالا تبقّت مترسبة عبر الأجيال وتجمدت مع الزمان حتى آلت إلينا كإرث غير مفهوم وغير منطقى ، يثير التساؤل مثلما يثير المشاكل .

وفى العصر الحديث ظل الدين أداة ميسورة للسياسة ، تستغله القوة لتشريع وجودها غير الشرعى مرة ، أو لتبرير مظالمها وابتزازاتها مرة أخرى . فمنذ البداية ، استغل الاستعمار الدينى التركى الخلافة مطية وواجهة للشرعية ، وباسم الدين نجح فى

فرض استعماره الغاشم على المسلمين ، وعلى أساس الدين ونظام الملة الذى ابتدعه لم ينجح إلا فى أن يفاقم مشكلة الطائفية ويبلورها فى العالم العربى حتى صارت إلى ما نعرف اليوم [١] .

ولا يقل عن ذلك خطراً ، وهو غير منفصل عنه تماماً فى جوهره ، تيار قديم يتجدد ويتردد بين الحين والحين فى صور وأشكال ، ولا نقول أقنعة ، مختلفة . والإشارة هنا هى إلى دعوى الوحدة الإسلامية أو الدعوة إلى توحيد العالم الإسلامى سياسياً . وتأتى هذه الدعوة أحياناً من خارج العالم الإسلامى نفسه ، بما فى ذلك ضمناً من ليسوا أصدقاءه ، وأحياناً أخرى تخرج من داخله . وقد تأخذ شكل فكرة الجامعة الإسلامية : كما قدمتها مثلا الدولة العثمانية فى أخريات أيامها ، أو قد تأخذ شكل الدعوة إلى حلف إسلامى : كما تواتر فى بعض السنوات الأخيرة ، وفيما بين الاثنين قد تأخذ شكل أحلاف دفاعية إقليمية عسكرية تغطى قطاعاً أو آخر من الدول الإسلامية : وذلك كما عرفت ومازال منطقة الشرق الأوسط خاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومن البديهى أن الدين - كل الدين - موطن حساسيات دقيقة وحماسات مرهفة، لها جميعاً ظلالها وانعكاساتها التى يمكن أن يستغلها أصحاب المصالح وصناع السياسة لأغراضهم المباشرة أو البعيدة . ولاشك أن كثيراً من هذه الدعوات السياسية التى تدور أو تستدير حول الدين تعتمد إلى حد كبير على استغلال هذه الحساسيات ، فضلا عن غياب المعرفة العلمية الكافية بين الكثيرين . وبالفعل ، فما زال البعض ممن يأخذهم الحماس الدينى الطيب يتصورون مثل تلك الدعوات أملا ممكناً ، دعك من كونه مشروعاً . وهذا أمر يثير موضوع العلاقة بين الدين والسياسة برمته ، ويجعل من المفيد والضرورى تقديم دراسة علمية منهجية متكاملة فى هذا الصدد .

---

(١) W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950, p. 105.

ولعل المدخل المنطقى إلى المناقشة هو أن ننظر بتركيز فى قضية الوحدة والتنوع فى العالم الإسلامى ، لما لها من أهمية حين يفكر البعض فى مشروعات التوحيد أو التحالف السياسى داخل هذا المحيط الكبير . والسؤال هو : فيما عدا الوحدة الدينية المؤكدة ، هل يمثل العالم الإسلامى وحدة طبيعية أو بشرية ؟ لقد حاول البعض أن يربط الإسلام بالجفاف والصحارى ، ولكن الحقيقة أبعد ما تكون عن هذا ، فالإسلام يترامى حتى خط الاستواء عبر بيئات طبيعية شديدة التفاوت : من الغابة الاستوائية إلى المدارية ، ومن السفانا الإفريقية إلى الاستبس الأسيوى ، ومن أدغال الهند (الإسلام الموسمى) إلى الفلد الإفريقى . فهو إذن يتوزع فى المناطق الحارة والمعتدلة والباردة على السواء ، كما ينتشر فى الصحارى الجافة والأعشاب المطرية والغابات الكثيفة بلا استثناء .

وبالمثل نجد « الإسلام البحرى » على السواحل ، كما نجده فى صميم القارات من الداخل . بل إن السواد الأعظم من المسلمين أقرب إلى التركز على القطاعات الساحلية والبحرية ، رغم ما يبدو من قارية شكلية فى الخريطة التقليدية لتوزيع الإسلام . والإسلام كذلك يغطى السهول المستوية المنخفضة فى إفريقيا الشمالية ، ولكنه يطغى بنفس القوة والسهولة على المرتفعات والجبال الوعرة فى آسيا غربها والوسط . ولقد رأينا فعلا أن لنا أن نتحدث عن « إسلام معلق » بحق فى قمم أطلس الشماء وجبال آسام وجاوة . بل إن الإسلام يكاد يحتوى - من بين ما يحتوى من مرتفعات - هضبة البامير التى تسمى « سقف العالم » .

وننتقل من النواحى الطبيعية إلى الجانب البشرى لنجد نفس التنوع داخل العالم الإسلامى . فالإسلام يتنظم من الأجناس والسلالات ، ومن اللغات والقوميات ، ما قد يجعله متحفاً بشرياً أو نمطاً كالموزايكو . فمن سلالة البحر المتوسط القوقازية غرباً ، إلى الأجناس الزنجية جنوباً ، إلى العناصر السمراء الدرافيدية والملاوية والبابوان جنوباً

بشرق ، إلى العالم المغولى شرقاً .. إلخ . ومن القوميات العربية والتركية والإيرانية إلى القوميات الطورانية فى وسط آسيا ، إلى الملاوية والإندونيسية فى جنوبها ... إلخ. وكل من هذه أو بعضها قابل للقسمة إلى مزيد من التفريعات والتصانيف .

لنتلخص . برغم وحدة الدين السارية ، فإن العالم الإسلامى ليس وحدة حتى حضارياً وإن تكررت فى بعض أركانه بعض من ملامح الحياة العامة . إنه ليس منطقة حضارية بالمعنى الأنثروبولوجى إلا فى معنى ضيق جداً ربما . وأقل من ذلك كثيراً يعد وحدة بشرية أو طبيعية . فالتنوع لا الوحدة هو القاعدة لا الاستثناء ، والقاسم المشترك الأعظم فيه قاسم مشترك أصغر فى الحقيقة .

وعلينا أن نذكر هذا لنعرف طبيعة هذا العالم الإسلامى الذى يراد له تجمع أو تحالف أو غير ذلك من المسميات . ومن الملاحظ أنه باستثناء العالم العربى ، لا نعرف فى الاستعمال الجغرافى الدارج وحدة يطلق عليها اسم « العالم » سوى العالم الإسلامى ، دليلا على ما فيه من تفاوت وتباين ، بل وتنافر وخلاسية فى أبعاده غير الدينية . إن العالم الإسلامى باختصار قطاع عرضى كامل من العالم القديم أو نموذج مصغر (ماكيت) له .

تاريخ الإسلام الجيوبولتيكى

على أساس من هذا الانتهاء الأخير ، أى دور سياسى يمكن أن يكون ملائماً للإسلام فى محيطه ؟ إلى أى مدى يمكن أن يكون الإسلام - موضوعياً - قوة إيجابية مؤثرة بذاتها فى العمل السياسى الدولى والعالمى ، وما حدوده فيه وإمكانياته ؟ هذا هو السؤال . والتجربة التاريخية وحدها ، كأمر واقع وكواقع معاش ، هى مفتاح الإجابة ، فحسبها يمكن أن نتعرف على الأدوار التى فشلت أو خرجت عن أغراضها ،

وتلك التى قدر لها النجاح . ويعنينا دائماً أن نتمثل بصفة خاصة الشكل الجغرافى والأبعاد المكانية للدولة الإسلامية كما كانت أو كما أريد لها . ولن نذهب بعيداً فى التاريخ الأكثر قدماً ؛ يكفى أن نحدد بعض علامات الطريق الدالة أو الموحية فى العصور الوسطى ، ثم نركز عدستنا على العصر الحديث .

والعصور الوسطى هي عصر الدين بامتياز ، سواء فى ذلك الشرق أو الغرب . ولكن الخلافة ، التى كانت تجسد وحدة العالم الإسلامى مركزياً فى العصر البطولى للإسلام إبان الدولة العربية الإسلامية ، كانت قد بدأت تتفكك وتتعدد . وانقسم العالم الإسلامى إلى عدد قل أو كثر ، سريع التغير كالكليدوسكوب ، من الدول المنفصلة المستقلة ، وأحياناً هوت هذه إلى زحمة مربكة كرقعة الشطرنج من الدويلات والإمارات والأتابكيات ، حتى فقد العالم الإسلامى وحدته السياسية الأولى . ولعل جزءاً من السبب فى هذا التفتيت أن نطاق العقيدة كان قد اتسع كثيراً عما كان عليه فى صدر الإسلام ، ولم يعد تلك الكتلة الأرضية المتصلة المندمجة بعد أن قفز عبر حدود الصحارى هنا وعبر البحار هناك .

غير أن الاتجاهات الجاذبة المركزية لم تلبث أن فرضت نفسها مع الأخطار الخارجية. فقد جاءت الصليبيات ، رغم دوافعها الكامنة كاستعمار اقتصادى خبىء ، جاءت تحت شعار الصليب وقناع الدين ، فأخذ رد الفعل صورة دينية من ثم ، وتلخص الصراع فى مبارزة ملحمية ومصيرية بين الإسلام والمسيحية . ومع ذلك ، وعدا الوحدة العاطفية الإسلامية والمتأججة ، فإن العدسة اللامة المجمعة التى شرعها الإسلام فى وجه الشعاع الساقط لم تتجاوز حدود مصر والشام تقريباً من الناحية السياسية ، ربما لأن الخطر المباشر تركز حولهما ، وظلت بقية العالم الإسلامى خارج مظلة الوحدة السياسية. ويكاد الموقف من فعل ورد فعل يكرر نفسه مع طوفان الوثنية المغولية .

غير أنه يتبقى بعد ذلك الدرس السياسى الكامن : إن الخطر الخارجى كان منذ البداية هو المحرك الأكبر لدعوة الوحدة الإسلامية . ولعل خير من يرمز إلى هذا ويلخصه ابن تيمية فى القرن الرابع عشر (ومن بعده تلميذه ابن قيم الجوزية) ، فهو عند جمهرة الفقهاء المحدثين أول دعاة الوحدة الإسلامية . وهو فى هذا صدى لعصره عصر تفكك وتمزق الدول الإسلامية وعصر الأخطار الخارجية المحدقة . غير أنه بواقعية ملحوظة لم يدع إلى دولة إسلامية عالمية موحدة ، وإنما إلى شيء أشبه - فى تقدير المحدثين - « باتحاد كونفيدرالى » يجمع العالم الإسلامى جميعاً [1] . ولكن من الواضح أن شيئاً من ذلك لم يتحقق .

ولقد أتى على الإسلام بعد ذلك حين من الدهر لم تكن الخلافة فيه شيئاً مذكوراً؛ مجرد شكلية اسمية أفرغت من محتواها الأصيل كوعاء للوحدة الإسلامية . وفى وجه ذكريات الصليبيات استطاع الأتراك العثمانيون أن يستعمروها ويستثمروها لكى تشرع دينياً سيطرتهم الجديدة فى العالم الإسلامى . وهنا ملاحظتان بالغتا الأهمية . الأولى ، أن العثمانية لم تشمل على اتساعها إلا قطاعاً فى غرب العالم الإسلامى ، أما إلى الشرق من جبال زاجروس فى إيران فقد تعدد الدول وأجزاء الدول الإسلامية المستقلة . وثانياً ، ليس صحيحاً أن الخلافة العثمانية أعادت جوهر الوحدة الإسلامية ، ففيها لم يكن « المؤمنون أخوة » عند أمير المؤمنين فى أى معنى ، وإنما الصحيح أن العثمانية « استعمار دينى » تخفى وراء وحدة الدين ولكنه جعل من أقاليم الدولة توابع ومستعمرات حقيقية للمتروبول .

وكما استثمرت العثمانية الخلافة فى بدايتها لتفرض نفسها ، فإنها ستجندها فى النهاية لتمنع انهيارها . فمرة أخرى يتعرض العالم الإسلامى برمته للخطر الخارجى فى صورة أعتى مما عرف فى أى وقت مضى . فلقد عادت أوربا فى العصور الحديثة مزودة

---

(١) محمود كامل ، « عروبتنا » ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٩١ - ٩٣ .

بحضارة وقوة جديدة لنطوق العالم الإسلامى من خلف ومن قدام ، من البحر والبر ، وذلك مع بداية عصر الاستعمار الحديث وبوجه خاص بعد الانقلاب الصناعى . وبعكس الصليبيات ، لم يعد هذا تلاقى الأكفاء أو الأنداد ، وإنما كان الإسلام متخلفاً متكلساً فى حضيضه الحضارى والسياسى . وبدأ العالم الإسلامى يتهاوى ركناً بعد ركن ويتداعى بصورة كاسفة .

وقد بدأ الغزو الاستعمارى من الباب الخلفى للإسلام ؛ لأنه كان الأشد عجزاً وضعفاً . فسقطت جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) فى القرن السابع عشر ، وضاعت الهند ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكذلك الملايو . ومع القرن التاسع عشر جاء دور الباب الأمامى للإسلام فى العالم العربى ، فسقطت الجزائر وتونس ومصر والسودان . وفى نفس الوقت كانت روسيا القيصرية تتوغل فى إسلام الاستبس جميعاً حتى القوقاز وتخوم إيران . ومن الجنوب كانت دول أوربا الغربية تكتسح الإسلام الإفريقى فى « تكالبها » المشهور . ومع دورة القرن وحتى الحرب الأولى جاء دور المشرق العربى ، فضاعت ليبيا ومراكش والشام والعراق . وما لم يقع للاستعمار من العالم الإسلامى خضع لضغوطه ونفوذه ، بينما تقلص الإسلام فى البلقان حتى كاد ينحسر عنه تماماً .

ومن كشف الخسائر هذا يتضح أن العالم الإسلامى جميعاً قد سقط تحت طرقات الاستعمار فيما عدا اليمن وقلب الجزيرة العربية ، لا لأنه مهد الإسلام بقدر ما كان لفقره.. وكذلك تستثنى هضبتا إيران والأناضول ولو أنهما لم تنجوا من مناطق النفوذ والتقسيم . ومن هنا فقد كان التحدى تحد حياة أو موت بالنسبة للإسلام ، وأعاد إلى الأذهان ذكرى الصليبيات . ولم يحاول الاستعمار الأوربى من جانبه أن ينكر هذا ابتداء من اللنبى فى القدس حين أعلن أنه « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، إلى جورو فى دمشق حين أطلق شماتته المعروفة : « لقد عدنا يا صلاح الدين » .

أمن الغريب إذن أن تلتهب الحماسة الدينية حتى تصبح النبرة الإسلامية ودعوة وحدة المؤمنين هى الشعار المضطرم فى طول العالم الإسلامى وعرضه ؟ أليس منطقياً أن يتخندق الإسلام المثخن بالجراح فى حمى الدين ، وأن يتخذ العمل السياسى من أجل الكفاح التحررى شكلا دينياً ؟ - لاسيما أن الإسلام نفسه كعقيدة تعرض حينذاك لحملات لا مثيل لها من التشهير والقذف من جانب المستشرقين وغير المستشرقين . إنها الصليبيات الجديدة ، بل أشد هولا وخطراً ؛ ولم يكن غير الإسلام - بديهياً - خط الدفاع الأخير والوحيد [١] .

وكما فى الصليبيات ، بل إلى مدى أبعد ، ليس صدفة تاريخية أو سياسية بالقطع أن يتحول العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر ، ولكن بالأخص فى القرن التاسع عشر ، إلى خلية عارمة تزخر بالحركات الدينية والتيارات والداومات السياسية، تضع الضغط والتأكيد جميعاً على الوحدة الإسلامية الكبرى أساساً ، وتتخذ بوصلتها ماضى الإسلام البطولى (السلفية) . ويمكن أن نحدد فى هذا المد المضاد تيارين جوهريين واضحين بما فيه الكفاية : واحد فى العمل الدينى - السياسى ، وآخر فى الفكر الدينى - السياسى .

الصحراء ؛ شيوخ الطرق ؛ الجهاد : هذا فى أساسياته هو هيكل العمل الدينى - السياسى . فالظاهرة المثيرة التى تسترعى النظر فى تلك الفترة أن العالم الإسلامى امتلأ فجأة بحركات إصلاحية تحريرية رصعت وجه الصحراء وتعاصرت أو تعاقبت دون ما سابق ترتيب أو إعداد ، ولكنها اندلعت كالعدوى الصحية وإن ظلت كالداومات المحلية المنفصلة . على يد رجال الدين من مرابطين ودراويش وشيوخ « وملاه » ، فى مدارس وزاويا وخلوات ، يبدأ كل منها فى مشتل صحراوى بعيداً عن يد الاستعمار ، ثم لا تلبث أن تخرج من مشاتلها إلى المعمور وتتعدى تعاليمها إلى الكفاح المسلح لتحرير الإسلام والمسلمين .

(١) L. Stoddard, The New World of Islam, N. Y., 1921, pp. 45 ff.

تلك السلسلة ، التى تبلورت حتى أصبحت نمطاً محدداً فى الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامى الجديد ، تبدأ بالوهابية فى صحراء نجد ، وتمتد مع السنوسية فى صحارى شمال إفريقيا ، لتنتهى بالمهدية فى سفانا السودان . وكان لبعضها دوى ضخم فى أقصى العالم الإسلامى ، كإشعاعات الوهابية فى الهند وأفغان [١] .

وكما تجمع بين هذه الحركات ظروف النشأة والملامح العامة ، تجمع بينها دورة حياتها - والموت . فكل منها يبدأ محلياً ويؤسس « دولة » بسيطة ، ولكنها تستهدف أحلاماً طموحة لا تقل فى النهاية عن توحيد العالم الإسلامى بأسره فى كل سياسى واحد موجه ضد الاستعمار الأوربى . بيد أنها جيمعاً تنتهى فى التحليل الأخير إلى ثيوقراطيات متواظعة ، مجرد إمارات أسرية وراثية يتحول بها شيوخ الطرق إلى ملوك الصحراء ، تتقوقع فى انفصالية وطنية ضيقة وتتحجر على نظمها وأنماطها الاجتماعية والحضارية لتصبح معاقل الرجعية العاتية فى العالم الإسلامى ، كل أولئك فى تحالف مطلق مع الاستعمار الذى قامت أصلا لتتصدى له !

ولذا فإن حركات العمل الدينى - السياسى لم تفشل فقط ، وإنما هزمت صميم أغراضها بنفسها وناقضت هدفها الأولى وهو الوحدة الإسلامية حتى نقضته تماماً . وهى كذلك ولذلك بدأت من وحدة مكانية مفرطة الضيق ، وتطلعت إلى وحدة مفرطة الاتساع ، ولكنها عادت إلى أعقابها إلى وحدة مفرطة الضيق والمحلية .

وشىء قريب من هذا يمكن أن يقال عن خط الفكر الدينى - السياسى الذى سارا موازياً لخط العمل الدينى - السياسى . فكرد فعل للانتكاسة الكبرى التى ألمت بالعالم الإسلامى ، اندفع الفكر الدينى - السياسى نحو مُثُل الوحدة الإسلامية الكبرى . وعلى رأس هذا التيار كان الأفغانى الذى يمكن - فى معنى - أن يقال إنه التقط

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٣٠ ؛ أنظر أيضا :

L. Stoddard, The Rising Tide of Colour.

الخيط الذى تركه ابن تيمية منذ قرون سبعة . وكما اشترك مع ابن تيمية تلميذه ابن القيم ، شارك الأفغانى تلميذه محمد عبده .

ولقد كان جوهر الدعوة من أجل التحرر الإسلامى هى الوحدة الإسلامية الشاملة فى امبراطورية إسلامية تحت خلافة واحدة . فالأفغانى رائد فكرة الجامعة الإسلامية بلاشك وداعيتها الأكبر والأكثر نشاطاً . ويرى البعض أن الدعوة ترادف اتحاداً فيدرالياً من النمط الألمانى على مستوى العالم الإسلامى كله . وعلى هذا الأساس دافعت هذه المدرسة عن الخلافة العثمانية ، أو هى على الأقل لم ترفضها (١) .

ومن هنا التقطت تركيا (السلطان عبد الحميد) الدعوة لتستولى عليها وتدعم بها كيانها الذى أوشك على الانهيار ، ولكن عبثاً . فمن ناحية بدا عجز العثمانية عن الدفاع عن الإسلام بصورة مخزية ، وظل الاستعمار يتخاطف أقطاره منها واحداً بعد آخر . ومن ناحية أخرى استشرى استبداد العنصرية التركية فى ولاياتها إلى حد الدموية . وفى النتيجة بدأ الشعور والوعى « القومى » يتحرك بين عناصر دولة الخلافة ليُغلّب ويُسوّد على الشعور والوعى « الدينى » . لقد بدأت جراثيم القومية ، وبدأ عصر القومية فى الشرق الإسلامى يصارع عصر الدين الذى أزمن وخضرم فيه طويلا حتى نهايات القرن التاسع عشر .

ولعل العامل الجذرى فى تحريك القومية أو إدخالها هو نمو البورجوازية المطرد وتحطم الإقطاع التقليدى فى تلك الفترة كنتيجة للتطورات الاقتصادية العميقة التى ترتبت على الاحتكاك والارتباط بالاقتصاديات والأسواق والاستثمارات الأوربية . وقد بدأ هذا التطور فى تركيا نفسها وكان نسبياً أنضج ما يكون فيها ، بينما كان يتقدم على استحياء فى المشرق العربى (٢) . وبعد مرحلة عابرة جداً تحالفت فيها البورجوازية

---

(١) Rondot, t. I. pp. 238 - 241.

(٢) Stoddard, New World of Islam, ch. V.

التركية النامية مع البورجوازية العربية الناشئة ضد الإقطاع العثمانى ، لم يلبث أن تصادما ، وتأكد إصرار البورجوازية التركية على السيطرة والتسيد على زساس العنصر والحكم (الاتحاد والترقى) . فكان رد الفعل هو تأكيد القومية العربية بدورها ، ومن هنا بدأ الافتراق .

وقد ساعدت معجلات ثانوية على هذا الاختمار التاريخى ، منها وبجه عام الاحتكاك العريض بالغرب الذى كان موصلا جيداً لفكرة القومية ، ومنها بوجه خاص أثر المسيحيين فى الشرق العربى ، فقد كانوا أسبق تعرفاً على مبدأ القومية الوارد كنتيجة لاتصالهم بالارساليات التبشيرية الأوربية ، كما كانوا أشد إحساساً بالاضطهاد التركى مما وجههم إلى البحث عن العروبة كبديل عن الإسلام . وفيما بعد ، أثناء الحرب الكبرى الأولى ، كان وعد الغرب للعرب بالتحرر من الاستعمار التركى فى مقابل ثورة عربية ضده ، واحداً من عوامل الاختزال العنيفة فى التحول نهائياً من الإسلامية إلى العروبة ، من الدين إلى القومية .

ولكن نقطة الانكسار من الدين إلى القومية لم تأت بسرعة أو فجأة ، بل كانت مرحلة مترددة حرجة واستطالت من أواخر القرن التاسع عشر إلى فترة الحرب الأولى . والسبب الأساسى فى هذا أن التناقض والارتطام بين الدين والقومية ، وقد جاء بطبيعته فى العالم العربى - النصف القومى الآخر من الامبراطورية العثمانية - فقد جاء فى أكثر منطقة من العالم الإسلامى يتداخل ويختلط فيها الدين والقومية . فإذا كانت أسس العروبة أكثر تركيباً وتعقيداً من الإسلام ، فإن الإسلام عنصر أساسى فيها .

وقد سبب هذا التداخل بعضاً من الحيرة والاضطراب بين بعض العرب - المقهورين - وغير العرب كمسلمى الهند - المضطهدين - ولم يتصوروا الانتقاض على دور الخلافة الإسلامية . وهذا هو الهامش الضيق الذى حاولت تركيا أن تتشبث به ، والذى حاولت الجامعة الإسلامية أن توسعه .

من هنا نجد الانتقال من دعوة الجامعة الإسلامية إلى دعوة القومية العربية يمر بمراحل تدريجية ، وبحلول وسطى ، قبل أن يتم الافتراق نهائياً . فقد امتلأ العالم العربى حينذاك بالتيارات والأحزاب والجمعيات السرية والعلنية ، كما تفجر بالنشاطات المضطرمة والثورات والتمردات التى تمثل هذه المراحل والحلول . ولعل الكواكبى يمثل مرحلة مبكرة منها ، فهو قد طالب بالخلافة للعرب دون الترك ، ولكنه لم يرفض وحدة الإسلام . ولعله بذلك وقف فى منتصف الطريق بين الجامعة الإسلامية والوحدة العربية، أو كان من رواد الوحدة العربية [١] .

ومرحلة أخرى تمثلها الجمعيات التى طالبت بالمساواة بين الترك والعرب فى الدولة ومنح الأقاليم العربية الحكم الذاتى . فثمة كان حزب « اللامركزية الإدارية » داعية الحكم المحلى فى داخل نطاق السيادة العثمانية . وثمة كانت « الجمعية القحطانية » - واسمها يؤكد القومية العربية فى جذورها الأولى - التى دعت إلى تحويل العثمانية إلى دولة ثنائية Dual Empire† بين الترك والعرب على غرار امبراطورية النمسا - المجر Ausgleich [٢] .

وحين رفضت تركيا كل هذه الحلول بحد السيف ، وبات واضحاً أن سيادة العنصرية التركية أساس شرطى للعثمانية ، واندلعت سياسة التتريك والعثمنة بلا هوادة حتى وصلت إلى حد المجازر وحمامات الدم (جمال باشا) ، كان المنعطف الحاد النهائى ، وولدت القومية العربية لا فى رحم الجامعة الإسلامية وإنما على جثتها . وكرد فعل طبيعى بعد الأمر الواقع وضياع الامبراطورية مع الحرب ، اتجه الأتراك بدورهم كلية ونهائياً إلى القومية واضطروا إلى التخلى عن فكرة الدولة الإسلامية والخلافة التى لم تمت بذلك وإنما دفنت ، فإنها كانت قد ماتت ميتة طبيعية بالفعل منذ أول مرة تعددت فيها فى العصور الوسطى إن لم يكن منذ وُرِّثت لأول مرة .

---

(١) G. Antonius, The Arab Awakening, Lond., 1955, pp. 97 - 8.

(٢) Stoddard, loc. cit.; Hans Kohn, Nationalism in the Near East, N. Y., 1929, p. 270 et seq.

وبهذا تكون الجامعة الإسلامية الدينية الفضفاضة قد تمزقت وانشعبت لتعطى مكانها لجامعتين قوميتين : الجامعة العربية Pan-Arabism ، والجامعة الطورانية Pan-Turanian . الأولى تدعو إلى دولة واحدة تضم القومية العربية ، والثانية إلى دولة واحدة تضم القومية الطورانية . لقد تحللت الوحدة الدينية الإسلامية إلى عواملها الأولية وهى الوحدات القومية .

غير أن هذه سرعان ما تحللت هى الأخرى إلى عواملها الأولية وهى الوطنيات الضيقة ، وكان الاستعمار عامل القسمة دائماً . فأما الجامعة الطورانية فقد وجدت كل عناصرها الشرقية من تركمان وترك وتتار فى وسط اسيا منفصلة عن الأتراك فى آسيا الصغرى ببرزخ أرضى عريض ، وواقعة تحت سيادات سياسية مختلفة تمتد من إيران إلى الاتحاد السوفيتى . فاضطرت القومية الطورانية إلى أن تتقلص - مع الكمالية - إلى الوطنية « الأناضولية » الضيقة . وإنها لهوة سحيقة تلك التى قطعتها تركيا لا من الامبراطورية إلى الأناضولية فحسب بل ومن الخلافة إلى دولة علمانية غير دينية ، حتى ليكاد الأمر يكون انفصالا شبيكياً كاملا بين الدين والدولة [١] .

وأما الجامعة العربية فقد سقطت فى يد الاستعمار الغربى الذى غرر بها فى خدعة الثورة العربية ثم غدر بها بعد الحرب ، فقسمها إلى رقعة شطرنج من الدول المنفصلة التى تابعت الكفاح من أجل التحرر على أساس وطنيات ضيقة كذلك وها هى أخيراً جداً فقط تتطلع ، عوداً على بدء وفى حركة عكسية ، إلى الوسط الأمثل ، إلى وحدتها القومية .

مرة أخرى إذن : من الإفراط فى الاتساع إلى الإفراط فى الضيق دون أن تمر بالوسط الأمثل من الإفراط إلى التفريط دون أن تمر بالاعتدال ؛ من الإسلامية إلى الوطنية دون أن تمر بالقومية ؛ إلى هذا جاء تطور أبعاد الوحدة السياسية فى العالم

---

(١) Rondot, t. I, pp. 279 - 286.

الإسلامى . وبعد أن كان الدين يكاد يطمس أو يبتلع بالتداخل معالم القومية أو يغرقها فى إطاره ، سنصل إلى حد أن يعتقد البعض أن الدين ليس مقوماً أساسياً من مقومات القومية .وبعد أن ظلت الخلافة تجسيداً شبه مقدس للإسلام ، سنصل إلى آراء تنكر أصلا أن الخلافة شرط فى الإسلام . لقد اكتمل الانتقال من عصر الجامعة الدينية إلى عصر الجامعة القومية .

قضية الوحدة

تلك هى القصة المفعمة للإسلام الحديث كقوة - دولة وكبعد سياسى : سلسلة من التجارب المريرة التى فشلت فى النهاية كأساس للكيانات السياسية للعالم الإسلامى. وصميم السؤال هو : لماذا فشلت ، وعلام يدل فشلها ؟ ببساطة لأنها ضد الجغرافيا وضد القومية - ضد الطبيعة باختصار . فلقد كانت الدولة الإسلامية الكبرى إذا تركت وحدها تتفكك من الناحية الدستورية تلقائياً ومن الداخل ، أما إذا ووجهت بخطر خارجى فلم يكن هذا الخطر يجمعها حقيقة من الناحية القانونية . وعلى أية حال، فإن الجامعة الإسلامية باستثناء صدر الإسلام لم تضم العالم الإسلامى برمته قط، وذلك لفرط اتساعه البحت . إنها ضد الجغرافيا .

وفى العصر الحديث ، فإنها كانت مبدأ يوتوبيا خيالياً وغير عملى ؛ ففى الوقت الذى كان الاستعمار الغربى يتقاسم كل أجزاء العالم الإسلام أين موضع الوحدة الإسلامية أى موضع ؟ وقبل الاستعمار الأوربى ، فإنها لم تكن فى الواقع وفى تقدير الكثرة من المؤمنين إلا استعماراً دينياً من الداخل . إنها ضد القومية .

وهذا بالدقة هو الحكم الذى يجب أن نصدره على العودة التى تبديها هذه الفكرة الدينية - السياسية ، مبعثرة هنا وهناك ، هذه الأيام . فمن الغريب أن فكرة الوحدة الإسلامية سياسياً لم تزل تعشش فى بعض الأركان حتى يومنا هذا . فقد كانت دائماً تجد لها بيئة صالحة بين مسلمى الهند قبل التقسيم وفى الباكستان بعده ، وذلك نتيجة خطر الاضطهاد الهندوسى . ومن هنا كانت الباكستان مشتلا ومصدّراً لكل النظريات الحديثة والدعوات المعاصرة فى الإسلامية ، كما تتمثل فى المودودى مثلا ، وكما تتجمع تحت شعار « اسلامستان » . ولهذه الإيديولوجية بعض صدى فى إندونيسيا حيث تأخذ شعار « دار الإسلام » . كما اقتبستها بعض الجماعات المسلمة الإرهابية فى العالم العربى خاصة مصر مؤخراً .

ولما كانت هذه الدعوى تعتمد على الغموض والحماس العاطفى ، فلابد لنا هنا من مناقشة علمية تحليلية لنرى إلى أى مدى يمكنها أن تصمد . ونبدأ بالدعوى نفسها؛ يكن أن نلخصها كالآتى [١] . الإسلام - كنقطة ابتداء - « دين ودولة » ، ولا يكفى أن تتحول كل دولة إسلامية إلى « دولة قرآنية » - هكذا يعبّرون - وإنما لابد من توحيد كل الدول الإسلامية فى دولة إسلامية عالمية « أحادية » لها مركز سلطة واحد . فوطن المسلم هو العالم الإسلامى كله ، ومواطنوه هم « المؤمنون » جميعاً ، والدولة الإسلامية دولة ليس أساسها العنصر والجنس أو القومية أو الوطن ، وإنما هى دولة « إيديولوجية » أساسها العقيدة الدينية . وإذا كان الاتجاه العالمى الحديث هو إلى الدول الإيديولوجية ، فهذا يصدق إذن - كما يقولون - على الدولة الإسلامية . ومن هذا المنطق جميعاً تنتهى الدعوى من الناحية العملية إلى نتيجتين غريبتين : أولا أن الإسلامية ضد القومية ، وثانياً أن الدولة الإسلامية دولة غير إقليمية non-territorial أى غير جغرافية .

---

(١) Rondot, t. I. pp. 255 - 260.

والمناقشة العلمية الموضوعية وحدها هى الحكم فى مثل هذه الدعوى العريضة .

فأولا ، وبغض النظر عن الطبيعة الخلاسية الشاذة لمثل هذه الدولة فى الأجناس واللغات والثقافات والبيئات ، وبغض النظر عن الأبعاد المسافية السحيقة والساحقة معاً على نحو ما بينا فى عرضنا لجغرافية العالم الإسلامى ، إذا كان ذلك كذلك ، فمن الذى يقوم بتوحيد الدولة الإسلامية الأحادية الكوزموبوليتانية ؟

إن كان الأقوى - سياسياً ومادياً - كما فعل الأتراك ، فما عسى يكون هذا سوى الاستعمار التقليدى بحذافيره ؟ ولكن لما كانت القوة متغيرة فى مصايرها ، فهذه دعوة إلى الصراع المسلح الدورى المستمر داخل الدولة . وإن كان الأجدر - دينياً - هو أداة التوحيد كما طالب العرب حيناً بالخلافة ، فهذه طبقية دينية تترجم إلى عنصرية جامدة إلى الأبد وتنتهى إلى صراع جنسى بين شعوب الأمة إى إلى صراعات بين القوميات المختلفة . إن هذه الدولة لكى تنشأ ولكى تستمر لابد أن تكون دموية أساساً ، دولة الحروب الأهلية بانتظام - نقيض معنى الإسلام مباشرة .

ثانياً ، إذا أمكن جدلا توحيد الدول الإسلامية - دول الأغلبية الإسلامية - فى هذه الدولة الفرضية ، فماذا عن دول الأقليات الإسلامية ، وهى التى كما رأينا تزيد عدداً عن نصف الدول التى تضم مسلمين وتحوى نسبة هامة منهم ؟ ليس من المعقول أن نطالب بضمها وأكثريتها من ديانات مفارقة . فهل نتركهم « المسلمين فى المنفى » ؟ وماذا عن المسلمين فى فنلنده مثلا - مئات ربما - أو فى أمريكا الجنوبية ؟ إن مبدأ الضم إذا اختير قد يصل بنا إلى جمع العالم كله فى هذه الدولة .

وهذا فى الواقع هو المأزق الذى تخرج منه النظرية بالنهاية الشاذة من أن الدولة غير إقليمية أو جغرافية ، أى لا قاعدة أرضية محددة لها ولا حدود . إنها إذن دولة تجريدية معلقة فى فراغ ، وعهدنا أن أبسط مبادىء نظرية الدولة هى الأرض أولا والأرض أخيراً . أو هى لها قلب وليس لها أطراف ، فإنها إذن الحروب الخارجية الدائمة مع الجيران ...

ثالثاً ، إذا افترضنا إمكانية مثل هذه الدولة الدينية الموحدة ، فإنها تصبح دولة - كتلة من حجم دينوصورى خطير . وبقانون الفعل ورد الفعل ، ستجد الدول الأخرى المهددة نفسها مرغمة على التكتل للبقاء ، أو متناقضة معها بحكم الإيديولوجية . فالتناقض مع الإيديولوجيات الدينية الأخرى يعنى المسيحية أساساً ، ويفتح من جديد باب الحروب المقدسة والصراعات الصليبية . أما مع الإيديولوجيات غير الدينية فالتناقض مع الشيوعية أساساً . إن فى غاب الإيديولوجيات إذن دينوصورات أضخم وأقوى ، وإذا رجع التناقض بينها معاً وبين دولتنا الوهمية على التناقض بين كل منها ، فقد أصبحت هذه بين شقى رحى وفكى كماشة . أى أنها بنفسها تهزم أغراضها فى القوة التى قامت من أجلها .

رابعاً ، إن منطق الدولة الإسلامية العالمية لا يتفق بالنظرية والفرض مع مبدأ عالمية الإسلام . فالإسلام أصلا دعوة عالمية ، وإذا كان قد تحدد تاريخياً بمنطقة جغرافية معينة ، فهو من حيث المبدأ يستهدف العالم كله . فإذا فرضنا جدلا هذا الفرض ، فهل حقاً يجوز التفكير واقعياً فى دولة العالم الأحادية ؟

خامساً ، يمكن أن يكون لمثل منطق الدولة الدينية العالمية نتيجة سياسية خطيرة من حيث أنه قد يشرع كيان إسرائيل الغاصبة : فها هنا دولة دينية تريد أن تجمع اليهودية فى حدودها ، ولا جدوى من الاعتراض حينذاك بأن الوضع هنا اغتصاب لوطن وليس تاريخياً ، فمثل عدونا الانتهازى الملفق كفيل بأن يأخذ من عنده منطق القوة والأمر الواقع ، ويأخذ من النظرية منطق الدولة الدينية الأحادية .

الانتهاء الموضوعى بوضوح هو أن فكرة الجامعة أو الدولة الإسلامية العالمية غير ممكنة عملياً ، غير معقولة نظرياً ، وغير صحيحة علمياً . ولقد قلنا إنها ضد الجغرافيا ، وضد القومية ، ضد الطبيعة باختصار ، ونخشى الآن أن نضيف : وضد الدين نفسه . إن الجامعة الإسلامية الموحدة يوتوبيا دينية ، وردّة سياسية ، وحركة

سلفية رجعية ، ورجعة تاريخية نكوصية ، تريد أن تضع عقارب الساعة إلى الوراء ، ولا تتعايش مع روح العصر ومناخ النصف الثانى من القرن العشرين . وتبقى القومية هى المبدأ السياسى الأمثل والممكن والوحيد . وهنا يصبح السؤال الذى يفرضه نفسه ويبحث عن الإجابة هو على الفور : ما هى إذن العلاقة الطبيعية ، السويّة والعضوية، بين الدين والقومية ؟ كيف يتعايشان ، وكيف ينبغى أن يستقر كل منهما فى إطار الآخر ؟

الدين والقومية

إن نظرة سريعة إلى خريطة العالم الإسلامى تكفى لكى توضح أنها أقلية معدودة للغاية تلك الدول التى يمكن أن تعدد اليوم دولا دينية ، وأن الدين وإن ظل فى الصورة فليس له بعد من دور إلا فى الصف الثانى أو على الهامش السياسى : لا نقول دوراً سلبياً ، ولكن تكميلى . أما مركز البؤرة من الحياة السياسية المعاصرة فى السواد الأعظم من دول العالم الإسلامى فتحتله غير منازعة فكرة قومية . إننا نكاد نقول « الدين العلمانى » فى العصر الحديث ، تمييزاً لها عن الدين الروحى بالمعنى المألوف . فهل تتعارض القومية والدين ، هل تتناقض العروبة والإسلام ، كما قد يبدو على السطح أو للسطحيين ؟

إن المتأمل فى واقع خريطة الإسلام السياسية واجد بغير عناء أن « الوطنية » ، بمعنى المحلية أو الإقليمية الضيقة ، هى أساس تقسيم وحدات الدول فيها فعلياً ، وأن هذا الأساس الضيق الذى تجمع الأغلبية على رفضه أو عدم صلاحيته وعلى أنه أصلا وغالباً من صنع الاستعمار الأجنبى ، قد حوّل العالم الإسلامى إلى بلقان كبرى من مقياس فوق - قارى . إن الوطنية ، بهذا المعنى الذى حددت ، أساس سياسى قزمى يتطرف نحو التفريط .

غير أن هناك من الناحية الأخرى كما رأينا من يتطرف فى الاتجاه المضاد نحو الإفراط الشديد ، يريد أن يجعل الين أساس الوحدة السياسية فى العالم الإسلامى ، بمعنى ألا تنتهى دولة فيه وتبدأ أخرى إلا حين وحيث تنتهى حدود العالم الإسلامى نفسه . بتعبير أخر يريدون أن تضم العالم الإسلامى جميعاً دولة واحدة ، وألاّ تتعدد فيه الدول سواء على أساس التقسيم الوطنى الراهن أو أى أساس سواه - وليس سواه فى الحقيقة إلا القومية . تلك الوحدة تأخذ عندهم أشكالا متعددة ، فهى أحياناً دولة الإسلام الأحادية العالمية ، وأحياناً الجامعة الإسلامية ، وأحياناً أخرى الحلف الإسلامى.

وعلى التو يبدو كيف أنهم يخلقون تناقضاً وتصادماً بين القومية والدين ويصورنهما كقطبين متنافرين . بل إنهم فى الواقع يحولون الدين إلى قومية بمعنى ما أو بطريقة ما ، فهم يتكلمون بالفعل عن « القومية الإسلامية » . وتخصيصاً من هذا التعميم ، فإنهم فى العالم العربى أحياناً ما يهاجمون مبدأ القومية العربية بوسائل شتى . فهل صحيح هو هذا المنطق علمياً ؟ أحقاً ترتطم القومية بالدين بعامة ، والعروبة بالإسلام بخاصة ؟

الشيء المحقق علمياً أن الدين عنصر ، ولكن القومية مركّب ؛ وتلك نقطة البدء لأى فهم صحيح للعلاقة بينهما : فالقومية تتألف من عدة عناصر ، الدين لاشك أحدها ، وإن حاول البعض أن يستبعده منها كلية . ومن ثم فالقومية فكرة أكثر تعقيداً وتركيباً من الدين ، وبالتالى فهى أوسع منه وأشمل . وليس من تناقض أو تعارض بينهما إذن ؛ ثمة فقط تداخل وتشابك ، تداخل وتشابك الجزء مع الكل والخاص مع العام . والجزء هنا - وليس العكس - هو الدين والكل هو القومية ، الخاص هو الإسلام والعام هو العروبة .

وفى النتيجة ، فإن القومية العربية تشمل الإسلام وتحتويه ، ولكنه لا يمتصها أو يجبها ، بل إنه ليغذيها ويدعمها : « إنما المؤمنون أخوة » ؛ وكذلك وفى نفس

الوقت « جعلناكم شعوباً وقبائل » . فوحدة الدين مستوى ، ووحدة القومية مستوى آخر ، ومن هنا فلا ارتطام بينهما : الأخيرة وحدة دستورية ، ولكن الأولى ليست كذلك بالضرورة : تلك وحدة مصير وكذان وسياسة وتلك وحدة عمل وأخوة وتضامن . وترتيباً على هذا يمكن أن نقول إن الإسلام يمنح القومية العربية لونها الخارجى وربما وجه بوصلتها فى العالم السياسى ، وقد يكون بل هو بالفعل مادة لاحمة ، أسمنت القومية كما قد نقول [1] ، ولكنه بالتأكيد ليس خامتها ومادتها الغفل .

ونصل من هذا جميعاً إلى أن تعبير « قومية إسلامية » مغالطة فكرية لأنه ليس إلا نقيض النقيض . أما العالم الإسلامى فهو بواقعه وبلا نقاش يضم عشرات القوميات المكتملة والمتمايزة بالمعنى العلمى الدقيق للقومية . والنظرية السياسية الأصولية فى الفقه الإسلامى لا تحتم قط وحدة « الإمامة » - يعنى وحدة النظام والإطار السياسى - فى دار الإسلام ، بل رخصت منذ وقت مبكر جداً فى تاريخ الإسلام بجوازتعددها إذا اتسعت رقعة المسلمين أو « فصل بينهما ماء » أو حتى فى القطر الواحد الكبير ... إلخ [2] . فكيف بالعالم الإسلامى اليوم وهو فى جملته أضخم من قارة وفى توزيعه أضخم من أن تحتويه قارات ثلاث ؟ التعدد إذن ضرورة حتمية ومنطقية ، وهى شرعية إلى ذلك .

إذا كان أساس التقسيم - أى التعدد - لا يمكن أن يكون الوطنيات الضيقة المرفوضة الحالية ، فليس يبقى من أساس علمى لتقسيم العالم الإسلامى سياسياً سوى القومية الرشيدة ، دون ما شبهة من تعارض بين الدين والقومية . ويصبح النمط العلمى والشرعى معاً للعالم الإسلامى هو مجموعة من الدول القومية المكتملة ، المنفصلة دستورياً المتعاونة روحياً ، تستقر فى محيطه ترصه جسمه وتغطى وجهه بلا حرج أو عنت . ولعل القومية العربية هى حالياً أبرز وأنضج هذه الوحدات التى ينبغى

---

(١) W. R. Polk, Generations, Classes & Politics, in : Kerekes, op. cit., p. 111.

(٢) محمود كامل . القانون الدولى العربى ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٤٩ - ٥٤ .

أن تأخذ مكانها فى خريطة العالم الإسلامى السياسية بلا تأخير . ومن هنا ، وليس من هناك ، فالقومية وحدها ، دون انفصال عن الدين أو معارضة له ، هى كلمة الدليل وعلامة المستقبل watchword ، وليست « مبدأ مستورداً » أو مجرد كلمة عالقة catchword من كلمات العصر السارية .

مرة أخرى وأخيرة إذن ، لا تناقض بين الدين والقومية . وإنما يبدو التناقض ظاهرياً حين يوضعان - خطأ - على مستوى واحد من التعقيد والتركيب ، أو حين يغلب الأول على الثانى - وهو أشد خطأ - كما يفعل دعاة الجامعة الإسلامية وما يجرى مجراها من الدعاوى . فالذى يتناقض مع الإسلام ليس القومية وإنما هو الجامعة الإسلامية . ومن المفارقات المثيرة أن هؤلاء الدعاة لا يفطنون إلى نتائج دعاواهم وإلى أين تنتهى بهم . ذلك أنهم ينتهون إلى موقف من القومية يشبه تماماً موقف الشيوعية التى يتنافرون معها فى كل شىء آخر ... فالشيوعية أيضاً تنكر القومية وتستنكرها ، وإذا كانت الجامعة الإسلامية لا ترى إلا وحدة الدين ، فالشيوعية لا ترى إلا وحدة الطبقة . ومن السخرية حقاً بعد ذلك أن الشيوعية - بغض النظر عن منطقها العام - لا ترى فى فكرة الجامعة الإسلامية إلا فكرة طبقية رجعية خاضعة للاستعمار وضد التطور والتقدم ... [1]

دور الإسلام السياسى

يجوز لنا الآن ، وقد وصلنا إلى نهاية المطاف فى هذا البحث التقريرى الموضوعى، أن نتساءل عن الدرس التطبيقى العملى الهادف ، تخطيطياً ومستقبلياً ، الذى يمكن أن يحمله لنا . فلقد أتيح لنا أن نرى المستحيل والممكن والواقع فى العالم الإسلامى ، ومن ثم فنحن فى موضع يسمح لنا بأن نسعى إلى التعرف على الواجب

(١) روندو . جـ ١ ، ص ٣١٦ .

الذى ينبغى . علينا ، بعبارة أخرى ، أن نركز بؤرة عدستنا على محاولة فى التخطيط السياسى ، نحدد بها إمكانيات العمل السياسى فى العالم الإسلامى ، أى الدور السياسى للإسلام ، وذلك في أبعاده الطبيعية بغير مبالغة أو تقليل ، وكذلك بغير تغرير أو تبرير .

ونقول تغريراً أو تبريراً ، لأن من الحقائق الغريبة بل المذهلة أن أكثر من أراد أن « يوظف » الإسلام سياسياً هو الامبريالية والاستعمار ، الاستعمار الغربى الذى جثم طويلا على صدر العالم الإسلامى وجسمه ولم يزل يحاصره ويعاديه للآن . ولا يعنى هذا بطبيعة الحال إلا استغلاله وتسخيره لأغراضه الإمبريالية العليا واستراتيجيته الكوكبية العدوانية . من هنا كان علينا أن نفرق فى دور الإسلام السياسى بين الدور الدخيل والأصيل ، وأن نحلل الأول لتعريته وكشفه قبل أن نصل إلى الدور الأصيل والصحى المنشود .

دور دخيل

فعن الأول ، نستطيع باطمئنان أن نطلق على الفترة من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم فى الشرق الأوسط « فترة صناعة الأحلاف » . ففى غضون عشرين عاماً قدمت أو نفذت ستة مشاريع أحلاف متعاقبة ، إما كأحلاف دفاعية عسكرية أو كأحلاف دينية سياسية . وكان مهندس هذه الأحلاف هو المعسكر الغربى ، وعلى رأسه الولايات المتحدة ومعها بريطانيا ، وصدّرها إلى دول إسلامية مختلفة تمتد وتتفاوت من الباكستان شرقاً إلى المغرب على المحيط الأطلسى غرباً .

وقد كان من أول وأبرز هذه المشروعات مشروع ظهر على مسرح السياسة العالمية فى الأربعينيات المتأخرة والخمسينيات الباكرة ، لإنشاء تجمع أو حلف أو جامعة

إسلامية ، يتلخص هدفه كما قدموه فى الوقوف « كحلف مقدس » فى وجه الشيوعية « ليدافع عن الإسلام ويواجه خطر الإلحاد » (كذا) . ويبدأ منطق المشروع كما رسموه من موقع العالم الإسلامى الجغرافى والإيديولوجى فى عالم ما بعد الحرب . فبالموقع الجغرافى ، توضح الخريطة السياسية حقيقة هامة ، وهى أن أطول حدود مشتركة مباشرة للاتحاد السوفيتى هى مع دول إسلامية ، ابتداء على الأقل من الباكستان وأفغانستان عبر إيران حتى تركيا . هذا فضلا عن أن جسم العالم الإسلامى الأساسى فى مجموعه يعد هذا ظهير ضخم للكتلة الشيوعية .

أما إيديولوجيا فقد كان التبرير أو الترويج يدور حول وحدة الأديان السماوية ضد الإلحادية اللادينية ، وأن العالم الإسلامى يمكن وينبغى أن يجمع قواه مع العالم المسيحى « الحر » فى جبهة واحدة ضد العالم الشيوعى . وفى هذا السبيل شهدت تلك الفترة حركات فكرية ومؤتمرات دعائية ولقاءات لاهوتية ، عديدة بدرجة لافتة للنظر ، تضرب على نغمة التقارب بين الإسلام والمسيحية ، وعلى وحدة الرسالات السماوية... إلخ .

نظرية المشروع إذن أنه يمكن للعالم الإسلامى إذا تكتل أن يكون « قوة ثالثة » أو « كتلة ثالثة » ، هى بطبيعتها « كتلة حاجزية » بين الشرق والغرب [(١)] . أما الصيغة الرسمية للتجمع المقترح ، فقد تراوحت بين « جامعة دول إسلامية » حيناً و «جامعة شعوب إسلامية» حيناً آخر ، بين « حلف دفاعى » حيناً و « اتحاد الدول الإسلامية » حيناً آخر .

وإذا نحن حللنا جوهر الحلف على ضوء هذه الحقائق ، فسنجد أنه أساساً وفى الدرجة الأولى جزء لا يتجزأ من استراتيجية الغرب لفترة ما بعد الحرب الثانية ، أعنى استراتيجية « الإحاطة والتطويق » المشهورة التى تهدف إلى حصار الكتلة الشرقية عامة والاتحاد السوفيتى خاصة بسلسلة متصلة الحلقات من الأحلاف السياسية

(١) روندو ، جـ ١ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

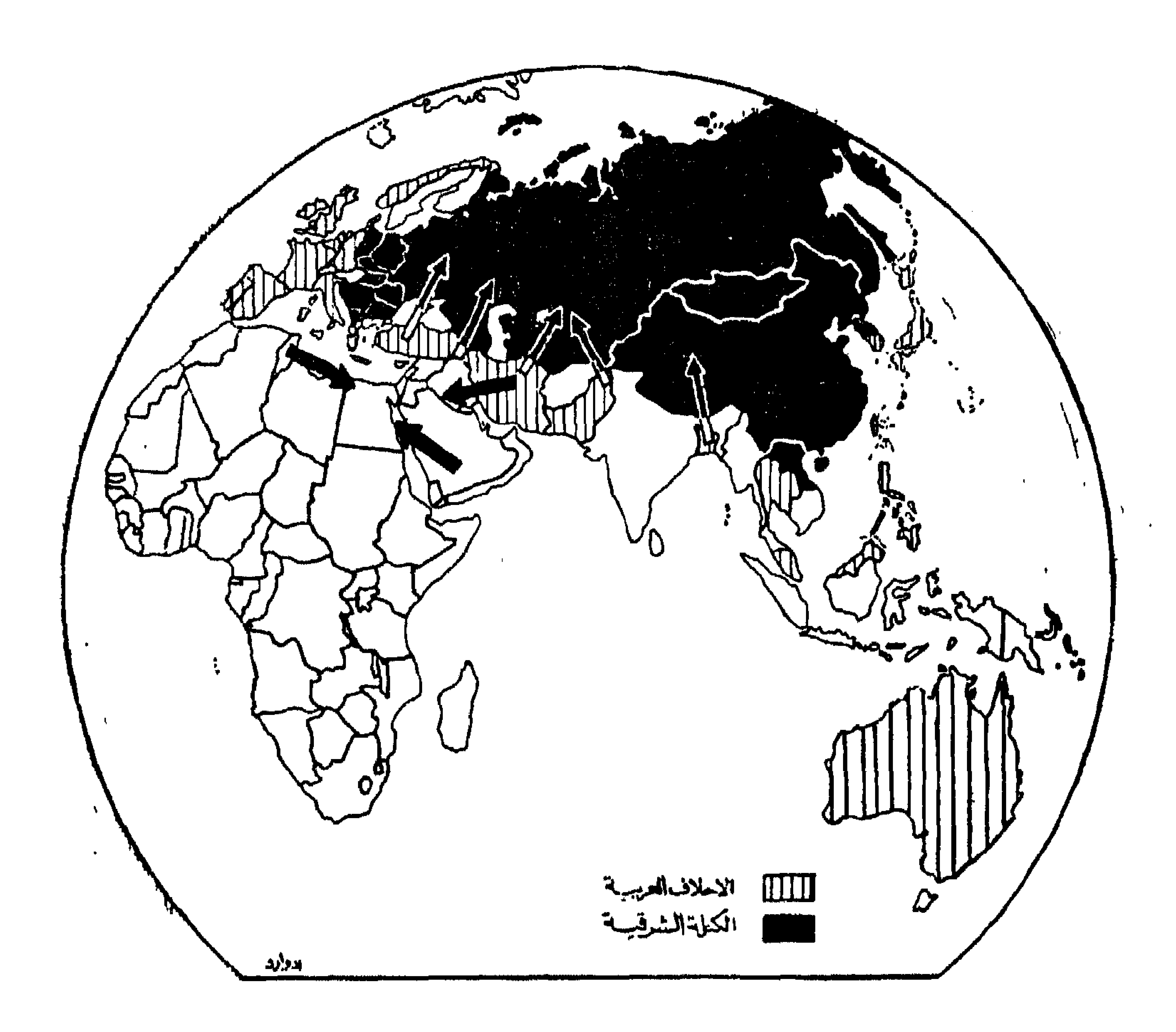
والعسكرية تبدأ من النرويج حتى اليابان . والحلف بهذا موجه « إلى الخارج » ، أعنى أنه يكتل العالم الإسلامى ككل لينظر إلى خارج حدوده ، وبالتحديد نحو تخومه الشمالية . وبعبارة أخرى ، ورغم المخاطرة بالتكرار ، ينبغى أن نصر على أن الحلف كان تعبيراً عن استراتيجية عالم الكتلتين ، وانعكاساً لمنطق الاستقطاب الثنائى .

والحلف بهذا ليس حلفاً دينياً رغم الاسم ، ولكنه حلف سياسى عسكرى عدوانى فى جوهره . أما الشعار الدينى فغلالة لا تخفى تسخيره للأغراض السياسية . نقطة أخرى لن تخفى على التحليل ، أن الحلف ، بمنطق معكوس ، كان يقوم مع تلك الدول التى استعمرت الإسلام طويلا وتقليدياً والتى كانت لاتزال تستعمر أغلب أقطاره ، بينما يوجه ضد قوى لا تاريخ استعمارى واضح أو أقوى لها فى العالم الإسلامى . أى أنه يتحالف مع عدو استعمارى جاثم بالفعل ضد خطر مفروض بالوهم ، بل ضد قوة عالمية عظمى أثبتت بالفعل والواقع أنها أكبر صديق وسند للعالم العربى المسلم ضد الاستعمار والصهيونية ، وكذلك للعالم الثالث المتحرر من الاستعمار والذى يقع العالم الإسلامى برمته فى محيطه .

وثمة نقطة أخرى وأخيرة وهى أن من الواضح أن الاستعمار الغربى الذى طالما حمل على الإسلام وشهر به وسخر منه ، أراد الآن أن يسخره لحسابه الخاص فى صراعه العالمى الجديد . وعلى سبيل المثال ، فلقد كان مبدأ « الجهاد » فى الإسلام يفسر دائماً ويهاجم فى الغرب على أنه دعوة إلى أحلاف مقدسة وحروب دينية ، وعلى أنه دعوة عدوانية دموية تعصبية [1] . ومن المؤكد أن الغرب لم يكن ليستحثه أو يستحييه الآن ، لولا أنه كان يتصوره أداة له ولأغراضه .

وطبيعى بعد إذ تكشفت حقيقة مثل هذا الحلف أن يموت بالسكتة القلبية ، فما كان لنبت طفيلى ظهر شيطانياً إلا أن يختفى فجأة كالأشباح . من هنا اتجهت الاستراتيجية الغربية إلى بدائل له سياسية وعسكرية تخلو من القناع الدينى ، ولكنها

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٠ وما بعدها .



(شكل ٧) العالم الإسلامى فى استراتيجية الاستقطاب الثنائى. مشروعات الأحلاف الدفاعية التى حاول الغرب منذ الحرب الثانية فرضها على قطاعات من العالم الإسلامى كجزء من محاولته تطويق الكتلة الشرقية . الأسهم تبين اتجاهات الضغوط.

- موضوعياً - استمرار له بصورة أو بأخرى . ولعل أولها هو « منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط » - الميدو MEDO - التى تمتد من تركيا حتى الباكستان ومن مصر حتى إيران . وقد قدم الغرب بنفسه هذا المشروع ، وقدمه لكل من العرب وإسرائيل(!) . فكانت تلك الخطورة القاتلة التى وأدت المشروع فى مهده . [١]

ومن هذه التجربة الحرجة بدأ الغرب يعدل تكتيكه : « الغزو من الداخل » بدلا من أن يفرض الحلف بنفسه من الخارج ، والتمويه بمواجهة إسرائيل بدلا من المشاركة معها . ومن هنا كان حلف بغداد الذى دعت إليه - شكلياً - دول من منطقة الشرق الأوسط للدفاع والأمن المشترك ، وروجت له - تضليلا - على أساس أنه دفاع وحماية ضد إسرائيل والخطر الصهيونى . وقد تألف الحلف من باكستان وإيران والعراق وتركيا ؛ و « انضمت » إليه بريطانيا وأمريكا . وقد كانت الضغوط لحشد الدول العربية فى حظيرة الحلف ملحمة تاريخية فاشلة . وبقى الحلف يقتصر فى الشرق الأوسط على كتلة أرضية متصلة تمثل جناحاً شرقياً من العالم الإسلامى ، ولكنها باشتراك العراق تمزق العالم العربى فى جناحه الشرقى .

غير أن الحلف فى نطاقه الضيق الذى انتهى إليه فقد فاعليته سريعاً ، وبدأ البحث عن وريث له وهو على قيد الحياة . وكان هذا الوريث هو مشروع أيزنهاور الذى قدم لملء « الفراغ » الذى قيل إنه نشأ فى الشرق الأوسط بعد انهيار بريطانيا فى معركة السويس وخروجها من المنطقة . فراغ أم تفريغ ؟ - هكذا يكون التساؤل الحقيقى . فلقد كان الهدف الأصيل هو فرض الوصاية على المنطقة وتجريدها من قواها الذاتية ووضعها فى مناطق النفوذ الغربية ، لا بل الأمريكية بالذات ، فإن مشروع أيزنهاور لم يكن إلا وريثاً أمريكياً لحلف بغداد البريطانى ، عملية إدالة من بريطانيا المتنحية إلى أمريكا الكاسحة .

---

(١) Halford L. Hoskins, The Middle East. Problem Area in world Politics, N. Y., 1954.

بيد أن التاريخ عاد يكرر نفسه ، ليدفن الوريث والموروث معاً وفي وقت واحد تقريباً : الأول في تربة العراق حيث أصبح حلف بغداد بلا بغداد ، وتحول إلى اسم على غير مسمى ، والثاني على أرض الوطن العربي العريض . أي أن مد القومية العربية هو الذي كسح المشروعين . فعاد حلف بغداد على أعقابه ليتسمى بالحلف المركزي ، الذي لم يلبث بالتدريج أن دخل في حالة من « التجميد العميق » كما قيل ، وفقد بالتدريج وزنه وفاعليته وأصبح حفرية سياسية مفرغة .

تلك المشروعات جميعاً يجمع بينها كما هو واضح قاسم مشترك أصغر أو أعظم يكشف جوهرها الاستعماري . فهي جميعاً أحلاف سياسية وليست دينية وإن تسترت بالدين . وهي جميعاً تحاول أن تجيّش العالم الإسلامي لا لحسابه ولكن على حسابه : مع العالم الاستعماري : ضد العالم الشيوعي : وعلى الحياد من الصهيونية الإسرائيلية(١) . ومن هذه الزاوية ، فلا مبالغة فيما قيل حيناً من أن الدور السياسي للإسلام كما يقدمه له الاستعمار هو « وصفة للانتحار السياسي » ..

وأخيراً ، فإن الخطة القائدة في تلك المشاريع هي نقل التأكيد والثقل من على إطار القومية المتبلور - القومية العربية - إلى إطار أوسع فضفاض هو الإطار الديني - الإيديولوجية الإسلامية - بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية . وهذا ما ينقلنا إلى دور الإسلام السياسي الصحي والصحيح ، دوره لحساب العالم الإسلامي لا ضده .

الدور الأصل

توحيد الدين ، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين ، لتذويب الفروق والفرق الحفرية التى ورثها عن ماض فقد الآن سياقه الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات ؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى ؛ التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة وعلى رأسها بالقطع فلسطين المحتلة : تلك جميعاً هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسياً .

إنها فى كلمة « وحدة عمل » لا « وحدة كيان » . بل يمكن أن نضيف : «وحدة مصير» ، إلا أنها ليست دستورية . فى كلمة أخرى : « وحدة فكرية لا دستورية » . أو هى كما قال عبد الناصر فى دوائره الثلاث « دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة .. » . فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير ، والإفريقية وحدة جوار ، فالإسلامية وحدة عقيدة .

ويعنى هذا أن العمل السياسى والنشاطات الدولية الإسلامية التى تخضع حالياً لتوجيهات منفصلة ومشتتة وربما متعارضة ، لا ينبغى أن تتحول من نمط الطرد المركزى إلى قوى الجذب المركزى . لابد - يعنى - من تنسيقها فى استراتيجية عظمى واحدة ، الإسلام بوصلتها التى تسترشد بها فى عالم القوى الذى يهدد الكل بصراعاته وتوازناته ، بضغوطه وتكتلاته ، وأيضاً باستقطاباته وتفككاته .

هذا التعريف الوظيفى لوحدة العالم الإسلامى السياسية قد يراه البعض حداً أدنى ، ونراه حداً أمثل . بل إننا لنخشى أن جهود الدول الإسلامية واستعداداتها الفعلية تقصر كثيراً دون برنامج العمل الإيجابى الذى ينتظمه حتى ليكاد يبدو على بداهته برنامجاً طموحاً أكثر مما ينبغى . إن هذا البرنامج هو المحك والمقياس الحقيقى

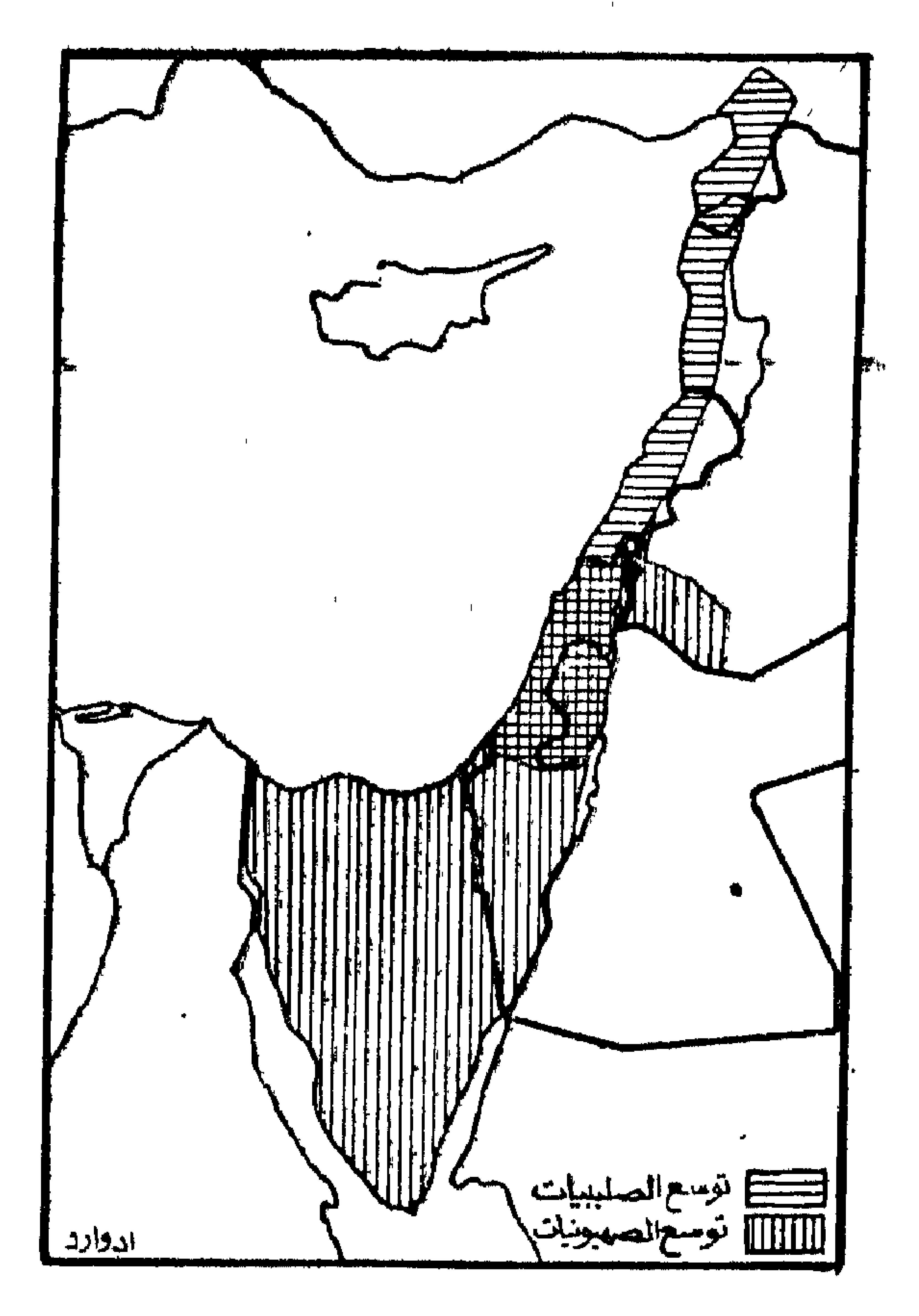
لنظرية وحدة العالم الإسلامى مثلما هو محيطها ومجالها .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يستدعى من الدول الإسلامية الحد الأقصى من التعبئة الشاملة المكثفة لكل طاقاتها ومواردها وإمكانياتها ، حتى يحتفظ العالم الإسلامى بمكانته العالمية وهيبته فى السياسة الدولية ، بل نكاد نقول حق الحياة والبقاء فى العالم المعاصر . ولا يصدق هذا كما يصدق على أخطر بنود هذا البرنامج وأكثرها مصيرية وهى قضية فلسطين ، التى تحتاج لهذا إلى وقفة خاصة .

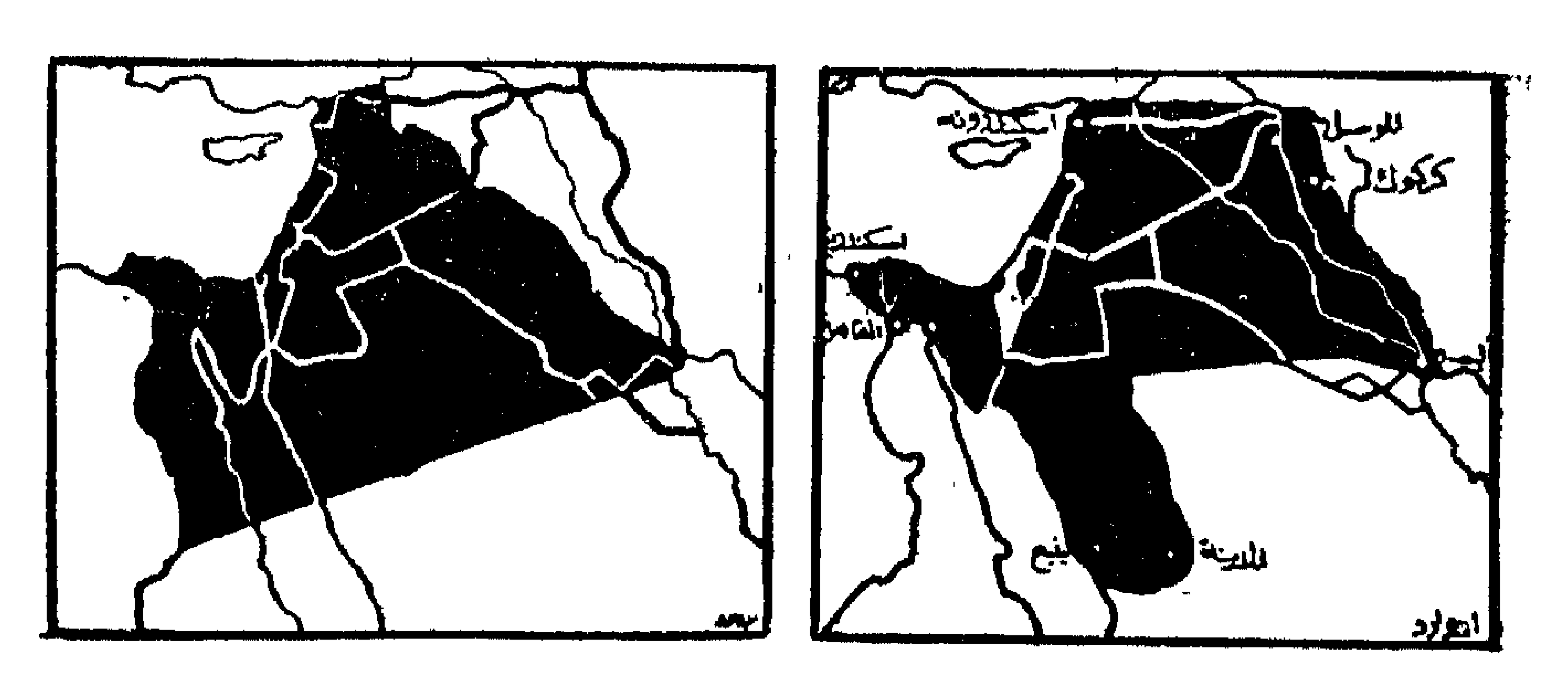
إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى ، لا جغرافياً فحسب ، بل ودينياً أولا وقبل كل شىء . إن يكن العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحياً وموقعاً ، فإن فلسطين - كمصر فى هذا الصدد - هى أرض الزاوية من العالم الإسلامى طبيعياً. وبالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه ما بين الصين شرقاً والأطلسى غرباً وما بين وسط آسيا شمالا وجنوب إفريقيا جنوباً . بل لقد كانت القدس هى مركز العالم كله فى « خرائط العجلة » الكنسية التى اصطنعتها العصور الوسطى .

غير أن فلسطين إلى ذلك ، وأكثر من مصر هذه المرة ، جزء حميم من صميم أرض الرسالة فى الإسلام . إن مهد الإسلام يمتد كمحور طولى بين الحجاز وفلسطين ، وكل من هذين القطبين ، الشمالى والجنوبى ، هو بحق عاصمة الإسلام دينياً . إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضاً وديناً .

والكارثة التى تعرضت لها فلسطين على يد الصهيونية الإسرائيلية هى سابقة ليس لها مثيل قط فى تاريخ العالم الحديث ، لا العالم الإسلامى ولا العالم الثالث . إنها ليست استعماراً قديماً أو جديداً فحسب ، ليست حتى استعماراً استيطانياً أو عنصرياً وحسب ، ولكنها كذلك وقبل ذلك استعمار إبادى إحلالى صرف . إن المد الاستعمارى الذى تعرض له العالم الإسلامى برمته فى القرن التاسع عشر ، والذى كان



(شكل ٨) مقارنة بين الخطر الصليبي والصهيوني على قلب العالم الإسلامي



(شكل ٩) تفسيران صهيونيان لحلم « إسرائيل الكبرى » المريض من النيل إلى الفرات . الأول يشمل كل العراق ونصف مصر ، والثاني نصف العراق وكل مصر ، ولكن الاثنين على حد سواء يشملان نصف المشرق العربي وكل قلب العالم الإسلامي ...

جزءاً من موجة « الاستعمار المدارى » ، تعاصرت معه أولى محاولات الصهيونية العالمية التى ركبت بالفعل نهايات موجته عملا على تحقيق حلمها فى الدولة اليهودية أو بالأصح دولة اليهود . ومنذ تلك البداية والصهيونية العالمية جزء لا يتجزأ عضوياً من الإمبريالية العالمية ، وقد استمرت بعدها وهى أعلى مراحل الاستعمار فى العالم العربى ، وهى الآن أعلى مراحل الإمبريالية العالمية . إنها قطعة من الاستعمار الأوربى عبر البحار ، والصهيونية بكل بساطة هى السرقة .

وإذا كانت إسرائيل فى بداياتها قد واكبت موجه الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر ، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات وخصائص استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخياً ، ولكن اسرائيل تمثل آخر موجة من الاستعمار الاستيطانى فى العالم كله . ومع ذلك فإنها تتميز عن جميع نماذج الاستعمار الاستيطانى بما يجعلها حالة فريدة شاذة تجمع بين أسوأ ما فيها ثم تضيف إليه الأسوأ منه .

هى مثلا كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدراً بشعاً من إبادة الجنس . وهى كذلك كجنوب إفريقيا تعرف قدراً محققاً من العزل العنصرى . وهى كالجميع استعمار أوربى أبيض ، غزوة غرباء أجانب من وراء البحار لا علاقة لهم جنسياً أو تاريخياً بالبلاد ، وإن زعمت إسرائيل العكس تماماً . ولكنها تختلف عن الجميع بعد ذلك من حيث أنها طردت كل السكان الأصليين خارج وطنهم تماماً ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها . إن إسرائيل بهذا كله أعلى - أعنى أدنى - مراحل الاستعمار الاستيطانى ، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال والاجتثاث والإبادة [1].

---

(١) جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٧ - ١٧٦ .

غير أن الصهيونية إلى ذلك استعمار دينى طائفى بحت ، ودولة إسرائيل دولة دينية يهودية تهويدية متعصبة تقوم على حشد وتجميع اليهود ، واليهود فقط ، فى « جيتو » سياسى واحد أكبر . وهى إذا كانت تفرض ذلك بقانون الغاب ومنطق القوة الرجعية الغاشمة فى القرن العشرين ، فإنها أيضاً تعيد إلى الحياة فلسفة الدولة الدينية التى تعد من حفريات العصور الوسطى بل عصور القبلية المتحجرة القديمة والتى لا يعرفها أو يعترف بها القرن العشرون . إسرائيل تأتى ، بتعبير مباشر ، «كغزوة مقدسة» : إنها تفرض من طرف واحد « حرباً دينية » ليس الطرف الآخر مسئولا عنها أو عن إثارتها أو طبيعتها ، وتبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة فى العالم الإسلامى الذى لم يعرف سوى التسامح الدينى تقليدياً .

بل إن الصهيونيات أسوأ من صليبيات جديدة ، فما كانت الصليبيات فى العصور الوسطى إلا استعماراً استغلالياً فقط تخفى وراء الصليب . أما الصهيونيات التى تتخفى وراء النجمة السداسية فاستعمار استيطانى استهدف اقتلاع وتصفية الشعب الأصلى تصفية جسدية ويعمل على تهويد الأرض وتغيير طبيعتها ومعالمها إلى الأبد . وبالمقارنة ، فإنه تجمع بين أسوأ ما فى الصليبيات وشر ما فى المغوليات الوثنية من تخريب وبربرية والتى كان طوفانها المدمر أكبر خطر تعرض له العالم الإسلامى فى العصور الوسطى .

وعند هذا الحد لابد أن نستدرك فنقول إن من المسلم به أنه ليس من مصلحة قضيتنا الفلسطينية أن نصورها أو نحولها إلى حرب دينية مقدسة أو إلى صراع أو جهاد بين الإسلام واليهودية . إن المناخ السياسى والرأى العام فى عالمنا المعاصر لا يحبذ أو يشجع مثل هذا الخط الذى ينتمى إلى الماضى ويثير كثيراً من الحساسيات المعقدة والعقد المركبة ذات الظلال التى قد تتجاوز أطراف الصراع المباشرة . ويكفى العالم

ويكفينا أن الصراع قضية استعمار إمبريالى من جانب ، وتحرير وطنى من الجانب الآخر. وهذا إطار قومى تقدمى إنسانى بما فيه الكفاية ، يضع القضية فى صفوف حركة التحرير الوطنى العالمية ، ويضع فى صفها كل قوى الوطنية والحرية والتقدم فى العالم .

غير أن هذا لا يغير أويقلل مع ذلك من الحقيقة الواقعة ، والتى لاحيلة لنا فيها ، وهى أن العدو الإسرائيلى الصهيونى يأتينا سافراً كدعوى طائفية دينية ، رجعية كما هى مكذوبة ، وأنه هو وحده ولسنا نحن الذى يفرض بذلك لونها الدينى المعلن إلى جانب لونها العنصرى والاستعمارى المحقق . وبهذا كله فإن الصهيونية ، التى خلقت أكذوبة « ضد - السامية » الخادعة ، تأتينا وهى فى الحقيقة وتحت الجلد وحتى النخاع « ضد - الإسلامية » .

فضلا عن هذا ، فإن الخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب ، فما هو إلا الخطر الواقع وإن هى إلا « إسرائيل الصغرى » . أما الخطر الكامن بل المعلن ، حلم « إسرائيل الكبرى » ، « الامبراطورية الصهيونية الثالثة » (هل نقول « الرايخ الصهيونى الثالث » ؟) ، فيمتد من النيل إلى الفرات شرقاً بغرب، ومن الاسكندرونة حتى المدينة شمالا بجنوب . إنها - هذا وهمهم - « أرض إسرائيل Erets Israel » . وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب ، ويضم كل أرض الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات ، ويرادف قلب العالم العربى ، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى .

التهديد إذن لا يقتصر على العالم العربى وحده ، وإنما يمتد إلى العالم الإسلامى أيضاً وضمناً ، وليس المسجد الأقصى وحرقه إلا رمزاً ومؤشراً لما ينتظر العالم الإسلامى جميعاً . ومن هذه الزاوية ، فإن الصهيونيات اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحد يواجهه العالم الإسلامى المعاصر ، تماماً كما يواجهه العالم العربى : أكبر من

صليبيات العصور الوسطى ، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوربى الحديث التى غطته فى القرن التاسع عشر والذى لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الاستراتيجية أو الاستغلالية . إن الاستعمار التوسعى الأخطبوطى الصهيونى إن يكن سرطان العالم العربى ، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه .

إن فلسطين – نحن نخلص ونلخص – هى اليوم وعاء الوحدة الإسلامية السياسية مثلما هى مقياسها ومحكها الحق والحقيقى . وإذا كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية ، فهى وحدة العمل السياسى ، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروبة والإسلام . وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى « قومية المعركة » ، فإن من واجب العالم الإسلامى كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى « إسلامية المعركة » . ولا يعنى هذا تعارضاً بين الشعارين أو استبدال هذا الهدف بذاك ، بل إنهما ليتكاملان تكامل الجزء والكل والخاص مع العام .

لا ولا هو يعنى كذلك بالضرورة استنفار العالم الإسلامى إلى « الجهاد » أو الدعوة إلى « حرب مقدسة » ، ولكنه على الأقل يعنى أن يشارك فى مقاطعة العدو المشترك الدخيل الغاصب ومحاصرته سياسياً واقتصادياً ، وهو أضعف الإيمان . وليس من المتصور على الإطلاق – كمجرد مثال – أن تعترف دولة إسلامية بكيان العدو بأى شكل من أشكال الاعتراف أو أن تتعامل معه ديبلوماسياً أو تتبادل تجارياً . على أن هذه التفاصيل وأمثالها متروكة للتخطيط السياسى إذا اتفق على المبدأ . ولكن يبقى المبدأ نفسه صحيحاً بلا حدود ، وهو أن تحرير فلسطين « هو » وحدة العالم الإسلامى السياسية ، وأن وحدة العالم الإسلامى السياسية إنما « هى » فلسطين .

* * *

{ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين }

رقم الإيداع ٣٠٥٨ لسنة ١٩٩٠

